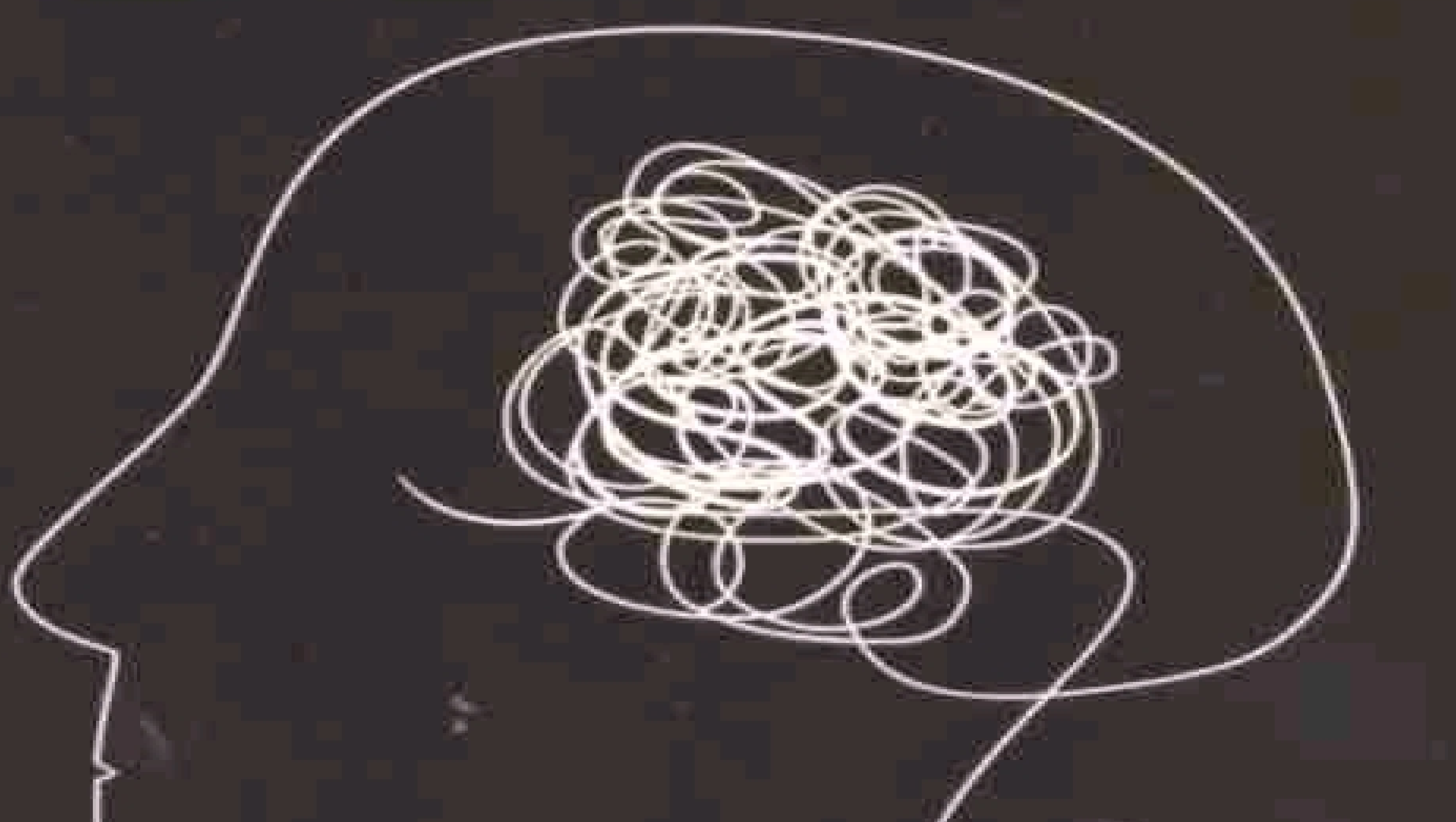
سلسلة الكتب المدعمة من عمادة البحث العلمي بجامعة الملك عبدالعزيز - ١٨

تاريخ نظريات الحِجَاج

تأليف:
فيليب بروتون جيل جوتييه



ترجمة:
الدكتور محمد صالح ناحي الغامدي

مركز النشر العلمي
جامعة الملك عبدالعزيز
http://spc.kau.edu.sa

تاريخ نظريات الحِجَاج

تأليف

فيليب بروتون جيل جوتييه

ترجمة

الدكتور محمد صالح ناحي الغامدي

قسم اللغات الأوروبية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الملك عبد العزيز

مركز النشر العلمي

جامعة الملك عبد العزيز

ص ب : ٨٠٢٠٠ - جدة : ٢١٥٨٩

المملكة العربية السعودية

http://spc.kau.edu.sa

الطبعة الأولى : ١٤٣٢هـ (٢٠١١م)

سلسلة الكتب المدعمة من عمادة البحث العلمي بجامعة الملك عبدالعزيز - ١٨

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بروتون ، فيليب
تاريخ نظريات الحجاج. / فيليب بروتون ؛ جيل جوتييه ؛ محمد صالح ناجي الغامدي. ـ جدة ، ١٤٣٢ هـ
١١٨ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك: ٩ - ٥٧٧ - ٠٦ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١ - الجدل - بحوث ٢- البلاغة - فلسفة أ. جوتييه ، جيل (مؤلف مشارك) ب. الغامدي ، محمد صالح ناجي (مترجم) ج. العنوان
ديوي ٤٠٤,١ ٦٢٢٣ / ١٤٣٢

رقم الإيداع: ٦٢٢٣ / ١٤٣٢
ردمك: ٩-٥٧٧ -٠٦-٩٩٦٠-٩٧٨

مطابع جامعة الملك عبدالعزيز

المحتويات

مقدمة المترجم

يعتبر الحِجَاج علماً قديماً جداً ارتبط بالكثير من المجالات، وسمحت بذلك طبيعته، فقد ارتبط بالمنطق وبالبلاغة وبالديالكتيك، إلا أنه تعرَّض للتهميش غير المباشر، وذلك بتقديم البلاغة في نهاية القرن التاسع عشر كمجال غير علمي، وبالتالي فقد ألغي من المناهج التعليمية، كما أن تغيير هوية المنطق مع فريج (Frege 1879)[1] ليصبح فنَّ الحساب (art de calculer)، بعد أن كان فنَّ التفكير؛ جعله منطقاً صورياً غير قادر على التعامل مع الخطاب، وإنما مع الرياضيات. أما في الفلسفة، فإن التركيز كان على علوم اللاهوت (la théologie).

إلا أن الاهتمام بالحِجَاج عاد مع كتابات الفيلسوف البلجيكي بيرلمان (Perelman)، الذي نشر مع أولبريشتس- تيتيكا (Olbrechts-Tyteca) في عام 1958م الكتاب الذي ترك أكبر الأثر في دراسات الحِجَاج إلى اليوم، وهو كتاب: «رسالة في الحِجَاج: البلاغة الجديدة (Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique)»، كما لا يمكن تجاهل الدور الذي قام به تولمن (Toulmin) أيضاً من خلال نشره، في العام ذاته، لكتابه المعروف: «استخدامات الحِجَاج (Les usages de l'argumentation)».

لقد بات الحديث عن الحِجَاج في سياق تطور العلوم الإنسانية في العقود الثلاثة الأخيرة أمراً بدهياً، حيث يعتبر أحد أهم الحقول العلميَّة التي تم تطويرها وإعادتها إلى الواجهة. فمن الصعب بعد كتابات بيرلمان وتولمن وكثيرين غيرهم، أن يتم تجاهل هذا العلم القديم، الذي أسس له أرسطو (Aristote)، كما أن حضوره الطاغي يومياً في أغلب أنواع الخطاب (السياسي والديني والإعلاني وحتى الاقتصادي والعلمي...) جعل من تطوره، سواء على مستوى التنظير، أو الممارسة أمراً حتمياً، خاصة مع تطور علوم الاتصال. فأصبح من السهل، إذاً، أن نرى، ونفهم، كل تلك النظريات، وكل تلك البحوث، التي انتشرت، وتشظَّت في حقول متعددة، تتناول الحِجَاج من أبعاد كثيرة.

(1) وذلك مع نشر كتابه: كتابة المفهوم (Ecriture du concept)، 1879. راجع بلانتان، الحِجَاج: التاريخ، النظريات، والآفاق، 2005، ص، 10. للتوضيح فإن تعليقات المؤلفين في الهامش مشار إليها برمز. أما باقي الإحالات فهي للمترجم وتنقسم إلى قسمين: هوامش توضيحية، أو تعليق على فكرة، وهوامش إحالية مرتبطة ببعض ما أورده المؤلف في ثنايا النص، ورأينا أن وضعها في الهامش يبرزها ويبينها أكثر. ومن ذلك مثلاً ورود أسماء ومراجع كثيرة في ثنايا النص. ونعتقد أن تكرار ذلك في نص مترجم يثقل على المتلقي أثناء القراءة. (المترجم).

وهـذا الكتاب الـذي نضع ترجمته بين يدي القـارئ العربي محاولة للتعريف بهذه النظريات، التي أخذت من المجال الجغرافي الغربي مكاناً لتنمو فيه وتنتشر. ومن الطبيعي أن يكون الغرب هو المكان الذي ينمو فيه الحِجَاج. فهذا العلم يحتاج إلى مناخ وبيئة واسعة للحرية. هكذا بدأ الحِجَاج في بلاد اليونان، عندما انتهى الاستبداد وظهر عصر جديد يستخدم الخطاب في حل قضاياه، مهما تعددت وتعقدت، بعيداً عن منطق القوة.

ويعتبر هذا الكتاب لبروتون وجوتييه أحد الكتب الأساسية التي تقدم نظريات الحِجَاج بأسلوب سلس ومركز، يجمع بين الإيضاح والشمول من دون إخلال. وعلى حد علمنا، لا يوجد كتاب آخر اهتم بتقديم تاريخ هذه النظريات، على الرغم من وجود عدد كبير من الكتب التي تقدم الحِجَاج من أكثر من منظور، كما أشرنا. أما هنا فتجد الحِجَاج مُقدماً من منظور لغوي، وبلاغي، وآخر منطقي طبيعي... ومع ملاحظتنا عدم إدراج النظرية اللغوية في الحِجَاج، التي طورها ديكرو وانسكومبر (Ducrot et Anscombre)، وهي إحدى النظريات الأساسية التي أعادت الاهتمام بالحِجَاج من منظور لغوي صرف، وسمحت بإعادة دراسة الكثير من المصطلحات والمفاهيم؛ كالصورة الخطابية (ethos)، وتعدد الأصوات (Polyphonie)...[2]، إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية هذا الكتاب، وربما يشفع للكاتب أن ديكرو يقدِّم نظريته في سياق معارض للحِجَاج البلاغي[3].

كما لا يفوتنا التذكير بأن مصطلح «نظرية» الوارد في هذا الكتاب يمكن فهمه على مستويين: الأول: علمي منهجي صرف يحمل الكثير من المفاهيم الجديدة، ويمكن أن يمثل ذلك نظريات بيرلمان وتولمن وجرايز (Grize)... والثاني: مستوى آخر أقل صرامة ويمكن

(2) للاطلاع على هذه النظرية وتطورها ننصح القارئ بالاطلاع على ما كتبه ديكرو وانسكومبر خلال العقدين الماضيين، ذلك أن نظريتهما قد تطورت حتى أنها في صيغتها الأخيرة قد عرفت دخول كاتبة جديدة هي (Marion Carel) واتجاهاً فريداً فيما يمكن ترجمته بنظرية المجموعات الدلالية (théorie des blocs sémantiques): بعض هذه الكتب هي :

- Ducrot, O. Dire et ne pas dire, Paris, Hermann, 1972-1991.
- Ducrot, O. La preuve et le dire, Paris, Mame, 1973.
- Ducrot, O. Les Échelles argumentatives, Paris, Minuit, 1980.
- Ducrot, O. Les mots du discours, Paris, Minuit, 1980.
- Ducrot, O. Le Dire et le dit, Minuit, 1984.
- Ducrot, O. «argumentation et persuasion». In : De Mulder (ed.). Enonciation et partis-pris. Amesterdam: actes du colloque d'Anvers, 1992, pp. 143-158.
- Anscombre, J-C. Ducrot, O. L'argumentation dans la langue, Bruxelles, Mardaga, 1983.

(3) Ducrot, O. «argumentation et persuasion», Op. cit.

التعبير عنه بالموقف النظري، ويمثله كُتّابٌ مثل: روبول (Reboule) وروبريو (Robrieux) وبلانتان (Plantin)... وإن كان الأخير بدأ يأخذ منحى أكثر تنظيراً، خاصة في دعوته إلى تطوير دراسة الحِجَاج من منظور مقارن[4].

ويتكون هذا الكتاب من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة. نجد في المقدمة عرضاً تاريخياً لبيئة ظهور نظريات الحِجَاج. بعد ذلك يتطرق المؤلفان في الباب الأول إلى تحديد الحِجَاج البلاغي وبدايته، وتتبع تطوره، وانهياره في نهاية القرن التاسع عشر. أما الباب الثاني فقد خصصاه لتناول التجديد الذي تم على يدي كل من بيرلمان وتولمن، وتوضيح النقاط الأساسية في تصورهما. أما الباب الثالث فقد ركزا فيه على الدراسات المعاصرة في الحِجَاج والبلاغة. وقد أسهب الباحثان في هذا الباب بتناولهما لمجالين جغرافيين ومعرفيين كبيرين ومختلفين هما الأنجلوفوني والفرانكفوني. وتحمل الخاتمة دعوة صريحة من الكاتبين لدراسة الحِجَاج ونشره كثقافة عامة مما يساعد على توسعة رقعة الحريات والعقلانية في تناول القضايا.

ونحن إذ نترجم هذا الكتاب، نقر باختلافنا مع بعض المفاهيم التي يوردها المؤلفان كحدود القضايا القابلة للحِجَاج ودرجة الشك فيها، إلا أننا نرى فيه مرجعاً مهماً جداً لكل باحث في هذا المجال.

وقبل إنهاء هذا التقديم المختصر والسريع ينبغي لنا التعريف بالمؤلفين. وهما فيليب بروتون وجيل جوتييه. الأول، حاصل على دكتوراه الدولة في علوم المعلومات والتواصل، وهو باحث في المعهد الوطني للبحث العلمي (CNRS)، بمعمل علم اجتماع الثقافة الأوروبية بجامعة مارك بلوش (Marc-Bloch) بمدينة ستراسبورج (Strasbourg)، كما أنه أستاذ زائر في جامعة السوربون (1) بباريس، وله مؤلفات عديدة تركت أثراً كبيراً في التصور العام لعلوم التواصل وتلقي المعلومة، وقد طور مصطلحاً مهماً جداً هو «حق التلقي»، الذي يدافع

(4) ونجد ذلك في كتابه، الحِجَاج: التاريخ، النظريات، والآفاق،
L'ARGUMENTATION: Histoire, théories et perspectives , Paris, PUF, Que sais-je?, 2005.

من خلاله عن حقوق المتلقين في التلقي[5]. أما جيل جوتييه، فهو أستاذ فلسفة اللغة في قسم المعلومات والتواصل بجامعة كويبك (Québec) في تروا- ريفيير (Trois-Rivières)، وله بحوث عديدة، خاصة في إطار الحِجَاج في الخطاب السياسي[6].

وختاماً، نشكر كل من اطلع على هذه الترجمة وكل من ناقشناها معه، وقدم لنا رأياً فيها، حيث كان لجميع الآراء فائدة كبيرة في الخروج بهذا العمل في صورته النهائية. وبما أن الترجمة دائماً عمل ينقصه شيء ما، كما الصورة التي ليست هي الأصل؛ إلا أننا أدينا جهدنا وهو جهد مقل، كان الهدف منه تقديم كتاب مفيد ينقل صورة لجزء من الدراسات في حقل الحِجَاج في فرنسا. ونأمل أن نكون قد وفقنا في ترجمة واضحة لعمل صدر بلغة أجنبية، يمكن أن يستفيد منه القارئ العربي. وحسبنا نصيب المجتهد إن أصبنا أو أخطأنا.

كما أتقدم بالشكر لعمادة البحث العلمي، جامعة الملك عبدالعزيز - جدة على دعمها العلمي والمادي لهذا المشروع بالمنحة البحثية رقم (٢-٠٣٩/٤٢٩).

وآخر دعوانا أن سلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

جدة - ربيع الأول 1432هـ

المترجم

---

(5) من هذه المؤلفات الفردية أو المشتركة:

-Histoire de l'informatique, Paris, 1987.
-Explosion dans la communication. La naissance d'une nouvelle idéologie, Paris, 1989.
-La techno-science en question: éléments pour une archéologie du XXe siècle, Seyssel, 1990.
-La tribu informatique: enquête sur une passion moderne, Paris, 1990.
-Pour comprendre l'informatique, Paris, 1992.
-L'Utopie de la communication. Le mythe du village planétaire, Paris, 1992.
-A l'image de l'homme. Du golem aux créatures virtuelles, Paris, 1995.
-L'Appel de Strasbourg. Le réveil des démocrates, Strasbourg, 1997.
-La parole manipulée, Paris, 1997.

(وقد حاز الكتاب الأخير جائزة فلسفة الأخلاق من أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية).

(6) من هذه الإسهامات البحثية:

-"L'argumentation périphérique dans la communication politique, le cas de l'argument ad hominem", Hermès n°16, Paris, éditions CNRS, 1995, p 167-185.
-"L'homme et l'argument ad hominem dans la communication politique" Les nouveaux espaces de l'information et de la communication. Actes du huitième congre national des sciences de l' information et de la communication, Lille, SFSIC.21.22.23 mai 1992a, p. 385-391.
-"Autopsie d'un débat politique: l'interpellation, Parizeau-Bourassa: Argumentation stratégique et communication politique" (note de recherche), Communication 13 (1), p. 163-185 (1992b).
-"L'argumentation stratégique dans la communication politique :le débat télévisé L'Allier-Bertrand", Politique, 17, 1990, p. 113-141.

المقدمة

إن هدف هذا الكتاب، الذي بين أيدينا، هو إعطاء القارئ نظرة شاملة عن تطور دراسة الحِجَاج، وفي هذه المقدمة نحاول تحديد تطوره التاريخي، وتوضيح النقاط المفصلية التي أثرت، ولا تزال تؤثر، في نظرياته.

بيئة ظهور نظريات الحِجَاج

على الرغم من أن الحِجَاج مثّل، منذ بداية الحضارة اليونانية الرومانية، موضوعاً للبحث، إلا أن تاريخه النظري قد مرَّ بانكسارات عديدة، وفترات ركون تخللها ظهور فجائي، إلى أن عاد انبعاثه وولادته من جديد في العصر الحديث. وكان الاهتمام بالحِجَاج يتوازى مع بعض العوامل، منها النظري، والاجتماعي. فالنظرية في الحِجَاج تتطور دائماً على خلفية فكرية معينة، وفي سياق اجتماعي خاص.

ويكون الحِجَاج مثار اهتمامٍ عندما تكون علوم أخرى؛ كالمنطق، والتواصل، والإقناع مثار اهتمام كذلك. فنظريات الحِجَاج، من دون استثناء، تم تطورها في إطار علاقة مع البرهنة (raisonnement)، والمنطق. وبعض هذه النظريات بنيت على هامش المنطق، وبعضها بالتعارض معه، وبعضها الآخر كان عبارة عن إرادة لتوسيع المنطق، وأخرى غيرها تم تطويرها من خلال عقلانية لا تبالي بالمنطق الرياضي. لهذا، فالحجة يتم تعريفها، غالباً، من خلال مقارنتها بالاستدلال الصوري الرياضي (raisonnement formel)، أو بالبرهان (démonstration). وفي كل الأحوال يتم ذلك بالارتكاز على مرجعية عقلانية.

ومن ناحية أخرى، فإن الاهتمام بالحِجَاج لا يتطور إلا في إطار أشمل هو التواصل؛ حيث ينبثق الاهتمام بالحجة من الاهتمام بما يتعلق بالرسالة، وطريقة نقلها، وتوصيلها وتبادلها. فالحجة كانت، ولا تزال، تعتبر محتوى، أو شكلاً من المحتوى التواصلي، سواء تم التصريح بذلك أم لا. وسيكون بالإمكان توضيح ذلك (وهو ما ينبغي عمله)، من خلال فحص الفرضية التاريخية التي تقول إن نظريات الحِجَاج هي الرحم الذي حمل نظريات التواصل. وفي كل حال، يبدو واضحاً أن السمة الأساسية في الحجة، التي تميزها تماماً عن التفكير المنطقي، هي أنها تظهر في لحظة تشكّل علاقة بين أكثر من طرف. وهذا ما يبرر الدفاع عن الحِجَاج كأساس لعلوم المعلومات والتواصل.

إن الترابط بين الحِجَاج والتواصل يتوسع ليشمل ذلك الذي يقوم بين الحِجَاج والإقناع، فالحجة لها غاية إقناعية أصيلة، لأنها تبحث عن إقناع المتلقي بفكرة ما، أو جعله يتخذ سلوكاً معيناً. أي أن الاهتمام بالحجة يقتضي ضمنياً الاهتمام بالإقناع. والتوقف عند أسباب حصول الموافقة على رأي ما لا يكون إلا من خلال الالتفات للآليات التي يمكن عبرها الحصول على تلك الموافقة. وغالباً ما يكون لهذا الاهتمام بالإقناع وجه أخلاقي، فتحليل الحجج يكون أكثر ثراءً عندما تتم مناقشة مشروعية آليات الإقناع؛ بل والإقناع ذاته.

إضافة إلى ما سبق، فإن ظهور نظريات الحِجَاج يعتمد أيضاً على العوامل الاجتماعية. فحظوظ الاهتمام بالحِجَاج وتطوره لا تكون وافرة إلا في مجتمع علماني[7] ديمقراطي ومسالم؛ لكنه قادر، في الوقت ذاته، على إثارة السؤال. فالحِجَاج هو بطريقة أو بأخرى، الفرضية المناهضة لما هو مقرر سلفاً. إنه لا ينطلق من حقيقة مفروضة؛ بل من قناعة ينبغي بناؤها، فهو عملية تعتمد على التوافق وليس القطعية. بذات الطريقة لا يمكن للحِجَاج أن يتطور ويمارس في مجتمع شمولي واستبدادي. فوجوده ليس له معنى إلا في مجتمع يتساوى فيه أفراده، أو على الأقل، يكون مجتمعاً متعدداً يتم اتخاذ القرارات فيه بطريقة جماعية. وبالتأكيد لا يمكن أن يحدث الحِجَاج إلا في وجود عدم اتفاق، إلا أنه يقتضي حل ذلك الاختلاف بالمواجهة الخطابية اللغوية، وليس بالقوة، والعنف، والمواجهات العسكرية. كما يتزايد الاهتمام بالحِجَاج ويشيع في مجتمع لديه القدرة على الشك في سلطاته المختلفة. هذا الشك وعدم الثقة هو التجسيد الاجتماعي لإثارة السؤال حول أخلاقية الحِجَاج، كما سبق القول. وتجدر الإشارة إلى أن تطور نظريات الحِجَاج يتم غالباً عندما تنتشر أساليب الاستدراج (la manipulation) وأشكال السيطرة الأيدلوجية. فبلاغة أرسطو كانت

(7) لا نعتقد أن الحِجَاج يحتاج إلى مجتمع علماني يفصل الدين عن الدولة أو الدين عن المجتمع لكي يتطور. القضية تتعلق بنوعية الفكر الديني، فنحن لا نعتقد إمكانية الحديث عن فكر ديني بصيغة المفرد، وإنما عن اختلافات متعددة تتعلق بكل دين على حدة. وإذا كانت هناك بعض السمات التي تجمع الأديان، فإن ذلك لا يعد مبرراً كافياً للحديث عن فكر ديني يجمع اليهودية والمسيحية والإسلام وغيرها من الأديان والمعتقدات؛ لذلك نعتقد أن الحِجَاج يمكن أن يتطور داخل مجتمع لا يفصل الدين عن الدولة والمجتمع إذا كان هذا الدين يتقبل الاختلاف، ويقر بحق الناس في المعرفة. ونعتقد أن الإسلام يمكن أن يكون هذا الدين، حتى مع تلك التجاوزات الخطيرة لحرية التفكير والتعبير في بعض البلدان الإسلامية. فالمرجع هو القرآن وسنة الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم. فالقرآن حمل في أول سوره كلمة «اقرأ»- حتى وإن اختلف تفسيرها فهي تحمل على التعلم- وأخبرنا عن ذلك النقاش الذي دار بين الله وإبليس عندما رفض السجود لآدم، وأخبرنا بأن موسى ذهب إلى فرعون يناقشه في الإيمان وأن الله طلب من موسى وهارون أن يقولا له (قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) (سورة طه، آية 44). (المترجم).

رد فعل على السفسطائيين، والكثير من نظريات الحِجَاج الإنجلوساكسونية تدور حول السفسطائية، وبعض نظريات الحِجَاج في الوقت الحاضر لها علاقة بأساليب الاستدراج.

المسائل المختلف عليها في نظرية الحِجَاج

تهتم نظريات الحِجَاج المختلفة بذات الموضوع وهو: العملية، أو الطريقة التي يتم من خلالها تقديم أسباب من أجل إقناع محاور أو مستمع ووحدات هذه العملية، وهي الحجج. و إذا تجاوزنا هذا الاهتمام المشترك؛ فإن نظريات الحِجَاج تختلف فيما بينها حول بعض الأسئلة الجدلية، وأهم هذه الأسئلة هي: تعريف الحجة، وعلاقتها بالبلاغة، وعلاقتها بالمنطق، وصلتها بالأخلاق.

إن كل نظرية من نظريات الحِجَاج، حتى تلك المتقاربة والمتشابهة في التناول، تحوي تصوراً، إلى حد ما، متفرداً وخاصاً للحجة. فلا يوجد تعريف واحد للحجة، والموضوع الذي تتشارك في دراسته نظريات الحِجَاج لا يزال غير واضح كما ينبغي؛ مما يجعلها تظهر كصورة مبعثرة، فهي نظريات تتوزع على طيف واسع يجعل وحدتها أمراً بالغ الصعوبة.

وأحد أهم الجوانب الأكثر غموضاً في كل نظريات الحِجَاج هو علاقتها بالبلاغة. فنجد في بعضها أن الحِجَاج والبلاغة، يظهران وكأنهما مترادفان، بحيث يمكن إحلال أحدهما مكان الآخر. وفي بعضها نجد أن مصطلح «البلاغة» غير موجود، على الأقل، في بعض الحالات. وذلك لكي لا يفهم أن الحِجَاج مختزل في آليات التعبير. وهناك نظريات في الحِجَاج نجد أن المصطلحين فيها متعايشين في علاقة غير ثابتة. والواقع أن التطور غير المستقر للبلاغة هو السبب الرئيس في هذه العلاقات المتعددة بين الحِجَاج والبلاغة. فإذا كانت هذه الأخيرة، في أصولها، كما عند أرسطو مثلاً، تعتبر جزءاً مهماً، أو على الأقل لها علاقة بمحتوى التواصل، فإنها بعد ذلك قد تداعت لتصبح فنَّ التعبير الجميل، أو آلية للفصاحة المهتمة بالشكل فقط. أما في وقتنا الحاضر، وإضافة إلى معانيه التقليدية، فقد أصبح لمصطلح «البلاغة» معنى آخر سلبي، إذ يحدث في أحيان كثيرة أن نصف خطاباً بأنه بلاغي لنعني بذلك أنه سطحي، ومتصنع، وخافٍ للحقيقة.

كما سبق وأشرنا، فإن الحِجَاج موضوع نظري يحدد دائماً من خلال علاقته بالعقلانية. وهذه العلاقة تصاغ بأكثر من طريقة في نظريات الحِجَاج المختلفة. ففي بعض هذه

النظريات، تعتبر الحجة شيئاً مختلفاً تماماً عن الاستدلال أو البرهان. وفي بعضها الآخر تمثل الحجة استدلالاً غير صوري. وفي البعض الآخر من هذه النظريات، يمكن للاستدلال الصوري أن يكون حجة في بعض سياقات الاستعمال. وهذه المسألة تحيلنا إلى قضية تعريف الحجة. وبما أن من المحقق وجود حجج من طبيعة مختلفة عن البرهانية الصورية الرياضية، فإن ذلك يعني التسليم أو عدمه بوجود حجج منطقية، أي أن بعض الاستدلالات يمكن استخدامها لنهايات حِجَاجية، وذلك وفقاً للتصور الذي يتبناه المرء للحجة.

بذات الطريقة، فإن تعريف الحجة يحدد البعد الأخلاقي للحِجَاج؛ ففي بعض النظريات، يتم التعامل مع الحجة بصورة معيارية، بحيث تكون المبرر المناسب المستخدم للإقناع، وعندها يتم تقديم الحجة وفقاً لتعارضها مع أسلوب الاستدراج، وعلى العكس من ذلك نجد، في نظريات أخرى، أن الحجة يتم تعريفها بصورة تقييميه محايدة. فكل سبب يقدم لهدف إقناعي، سواء كان جيداً أو سيئاً، يعتبر متعلقاً بالحِجَاج. وفي هذه النظريات لا يعتبر الحِجَاج والاستدراج إقصائيين، فبعض الحجج يمكن أن يستخدم للاستدراج والبعض الآخر لا.

الباب الأول:

ارتقاء الحِجَاج البلاغي وانحطاطه

تمثل البلاغة منذ القدم، وحتى عودتها من جديد في القرن العشرين، الإطار المثالي لنظريات الحِجَاج. فهي في جوهرها تأمل شامل حول الطريقة التي تبدأ من اكتشاف حجة ما وحتى قبولها، أو رفضها من متلقيها. بهذا، وكما أشار إلى ذلك كريستيان بلانتان، توسع مجال اشتغال البلاغة من الخطاب الاستشاري السياسي (délibération politique)[8]، والقضائي (judiciaire)، والاستدلالي (épidictique)[9]؛ وهي الأنواع الثلاثة الأساسية لنشئه، ليتعداها إلى الخطاب الوعظي الديني (مع ظهور المسيحية)، والخطاب الرسائلي (في القرون الوسطى)، وصولاً إلى الإعلان التجاري والحقل الإعلامي (في العصر الحديث). وكما يقول رولان بارت (Roland Barthes) مشيراً إلى ذلك «العالم اليوم مليء بالبلاغة القديمة بصورة لا تصدق» (1970: 172)[*]. ومنذ أرسطو كان الحِجَاج البلاغي، كما يتم تعريفه عبر مجالات تطبيقه، يختلف بشكل واضح عن أساليب الإقناع الخاصة بالخطاب العلمي. فهو يهتم بالعبارات، أو بصفة عامة بلحظات التواصل التي تنتمي للحياة الاجتماعية، والدينية، والسياسية، سواء كان ذلك في الإطار العام أو في المحادثات الخاصة. وهذا ما يجعل إطاره المعرفي قائماً على «احتمالية الصواب» (Le vraisemblable) وليس على «الحقيقة» (La vérité).

وإذا بحثنا في الماضي عن التأملات النظرية التي تناولت الآليات التي من خلالها يتبادل الناس الأفكار والآراء كموضوع محدد (وكل هذه المعاني يتضمنها استخدام الكلمة

(8) مفردة «السياسي» موجودة في النص المصدر وليس إضافة من المترجم. (المترجم).

(9) اقترح أحد الزملاء ترجمة هذه الأنواع الثلاثة بما درجت عليه النصوص الفلسفية العربية القديمة وهي: (منافريّ قضائيّ / مشاوريّ)، وكما يتضح فالاختلاف الحقيقي يقع فيما سمي بالخطاب المنافريّ. وللحقيقة لم أفهم هذه الترجمة حق الفهم ولم أقتنع بها لكي استخدمها. ولكن بما أن هذا النوع من الخطاب يتعلق بالقيم جيدها وسيئها فقد ارتأيت استخدام مصطلح استدلالي، أي يستدل من خلاله إلى هذه القيم، على الرغم من عدم رضائي التام عن هذا المصطلح، حيث إن «الاستدلال» يمثل إحدى العمليات الرئيسة في مبحث الحِجَاج والبرهان مما قد يشكل على القارئ. إلا أني سأحاول جاهدا التفريق من خلال استخدام مصطلح الخطاب أو الضرب وما شابه ذلك للإشارة إلى استخدام مصطلح «استدلال» بهذا المعنى. وأشير فقط إلى أن عبد الرحمن بدوي استخدمه في تحقيقه لكتاب الخطابة حين أشار إلى هذا النوع بقوله «الخطبة الاستدلالية» «الحفلية» (راجع عبد الرحمن بدوي، دار المعارف، مصر، 1977، ص. 16 وما بعدها). (المترجم).

(*) المراجع بين الأقواس تحيل إلى المراجع النهائية في آخر الكتاب. (المؤلفان).

اللاتينية informatio)، فسنجد سريعاً تلك النظريات، المحكمة البناء، التي كانت تغذي البلاغة منذ بدايتها. نستنتج إذن، أن الحِجَاج والبلاغة مبدئياً مصطلحان مترادفان.

لذا فيمكن القول، بصورة عامة ومن دون جدال فعلي، إنَّ البلاغة هي «فن الإقناع» المرتبط بلحظات تواصل حقيقي تقتضي بالضرورة قيام طرف ما بإقناع طرف آخر. وهذا الفن مرتبط بابتكار يوناني آخر هو الديمقراطية ومؤسساتها. فهناك المحكمة التي يتألف محلفوها من عدد كبير من أفراد الشعب (ويعتقد أن عدد المحلفين في محاكمة سقراط كان أكثر من خمسمائة فرد، وهذا ليس بالشيء الغريب) الذين يستمعون إلى الأطراف وهي تقدم قضاياها. وهناك المجمع، المسمى الجورا (L'agora)، الذي يجتمع فيه المواطنون ليستمعوا للخطباء، وليتشاوروا، ثم يتخذوا القرارات الخاصة بالمدينة بعد ذلك. وهناك الاجتماعات التي تلقى فيها قصائد المدح؛ كالمراثي مثلا، التي تتيح الإشادة بالمدينة وإثراء فضائلها. إلا أن الحِجَاج البلاغي انفصل تدريجياً عن الجزء الأدبي من البلاغة، الذي يركز كلياً على المحسنات اللفظية وأساليب التعبير.

في هذا الفصل الأول من الكتاب سنتناول نظريات الحِجَاج داخل البلاغة، منذ مولد الكتابات البلاغية القضائية الأولى في القرن الخامس قبل الميلاد وحتى تجديدها على يد شاييم بيرلمان في نهاية الخمسينات من القرن العشرين. ومن هذا المنظور سوف نفرق بين أربع فترات مهمة، هي:

- فترة التأسيس، وهي مرحلة الكتابات الأولى في البلاغة وتعليم الكتّاب الذين كانوا يعدون المرافعات عن المتهمين وللشاكين. وهذه المرحلة تتزامن مع التعليم السفسطائي، كما أنها الفترة التي ترسخت فيها الديمقراطية اليونانية. وتمتد هذه الفترة من منتصف القرن الخامس وحتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، أي أنها تمتد قرناً من الزمان.

- فترة النضوج، وهي أوج فترة أرسطو. وقد قام هذا الفيلسوف الكبير بعملية قطع مع ميراث «صناع الكلام» (technologues)، الذين كان سلوكهم في الفترة السابقة منافياً للأخلاق. وساد كتابه «البلاغة»، الذي من المحتمل أن يكون قد كتبه بين عامي 329-323 قبل الميلاد، من الناحية النظرية، في هذا المجال حتى يومنا هذا. فكانت هذه البلاغة الأروسطية المرشد لثقافة الحِجَاج، التي انتشرت في إطار الجمهورية وبداية الإمبراطورية، والتي شهدت كبار الخطباء كـ شيشرون (Cicéron) وكنتيليان (Quin-tilien) وهم ينسقون وينظمون ويعممون معايير الخطاب الإقناعي.

– فترة الانحطاط، وهي مرحلة تدهور نظرية الحِجَاج في داخل البلاغة، وتمتد هذه المرحلة من نهاية الإمبراطورية الرومانية حتى منتصف القرن العشرين. وفيها تحولت البلاغة إلى مجرد نظرية في المحسنات والصور الأسلوبية، أما جزء الحِجَاج منها؛ ففقد مكانه تدريجياً في ظل التصاعد القوي للبرهان (في العلوم البحتة والتجريبية) وبعض فلسفة الوضوح (évidence).

– فترة التجديد، وهي مرحلة انبعاث «البلاغة الجديدة»، خاصة مع كتابات الفيلسوف والقانوني البلجيكي شاييم بيرلمان وكتابات تولمن حول الحِجَاج في النطاق الأنجلو- سكسوني.

1- ميلاد البلاغة

يعود ظهور النظريات الأولى في الحِجَاج، تقريباً، إلى ما بين 440-450 قبل الميلاد، وذلك في صقلية اليونانية. والاسمان المرتبطان بهذا التأسيس هما كوراكس (Corax) وتلميذه تيزياس (Tisias). وكما يقول شيشرون، الذي يذكر أحد نصوص أرسطو المفقودة: «لم يعرف قبل ذلك أن أحداً ما قد اعتاد أن يترافع بمنهجية وآلية محددة، حتى وإن كان البعض يؤدي ذلك ببراعة ودقة» (شيشرون، Brutus، 46)[10]. وهذه النظريات تم تشكّلها في سياق معين، وهو تأملات الخطباء حول ممارستهم لخطاباتهم القضائية في مجتمع قد عرف التحول إلى الديمقراطية. وبعد ذلك بوقت وجيز عُرف المجال الذي يجمع هذه النظريات في الإقناع بالاسم اليوناني (techné rhétoriké): أي فن البلاغة.

أصبح هذا الفن موضوعاً لمحاولات التكييف والاستملاك طوال فترة ما قبل أرسطو، ولم يعرف مكاناً خاصاً ومحدداً، في حقل العلوم، إلا بعد الكتب الثلاثة لأرسطو حول البلاغة. وقد كان حتى هذا الحين موضوعاً يتناوله السفسطائيون من جهة، والفلاسفة المحيطون بسقراط ثم بأفلاطون من بعده، من جهة أخرى. وكان لأفكار السفسطائيين عن اللغة وللمناهج الصارمة، التي دافع عنها سقراط، أثر بالغ في تعميق نظريات الحِجَاج الأولى، التي تشكلت من المناهج التجريبية (empiriques). وبعيداً عن صراع الأفكار

(10) وفقا لفرنسواز ديسبورد (Françoise Desbordes 1996) فإن نص أرسطو المفقود هو (La Synagôgè technôn) وترجمتها (Recueil de techniques). ويمكن ترجمتها بالعربية إلى «مصنف في الآليات». (تعليق من المؤلفين ورأينا وضعه هنا للتوضيح. كما أن التعليق البارز من المترجم). (المترجم).

هذا، تشكلت «ثقافة الإقناع»، التي تغذت من مهارة وحنكة الكثيرين من الخطباء الذين قاموا بعملهم في المحاكم والجمعيات، أو في المجمع المعروف بالجورا.

النظريات الأولى في الحِجَاج

يشير رولان بارت (1970) إلى أن البلاغة ولدت من «المرافعات في قضايا الملكيات» في سيراقوسه (Syracuse). فقد تأثرت المدينة، التي عرفت عقوداً من الاستبداد، بالثورة الديمقراطية اليونانية، التي كانت تعطي للكلام دوراً كبيراً. وكان يتمثل ذلك بجلاء في مدينة أثينا. ونتج عن هذا خلق فضاء اجتماعي جديد يحتل فيه الأفراد جميعاً مواقع متماثلة. إنه المجمع (الجورا) الذي يصفه جان بيير فيرنان (Jean- Pierre Vernant) بالقول إنه: «يشّكل مركزاً لفضاء عام، يعني مجرد دخوله المساواة بين الحضور [...]، وفي هذا الفضاء السياسي يدخل الموجودون في علاقة تبادلية كاملة» (1962: 126).

هذه الثورة الفكرية، التي حدثت بين القرن الثامن والقرن السابع قبل الميلاد، تحولت مباشرة إلى إعلاء شأن الكلام بشكل يتجاوز كل وسائل السلطة والسيطرة الأخرى، إذ أصبح الكلام كما يقول فيرنان: «أداة السياسة بامتياز، ومفتاح كل سلطة في الحكومة، ووسيلة القيادة والسيطرة على الآخرين» (1962: 44). من هنا ظهرت مؤسسات جديدة، وشكل جديد للعدالة، «لقد كانت هذه المرافعات من نوع جديد، وينبغي عليها إقناع المحلفين الذين جندتهم العدالة من بين الشخصيات الشعبية المهمة. ولكي يتم الإقناع يجب أن يكون المرء فصيحاً. هذه الفصاحة، التي تشترك في الديمقراطية والديماغوجية، وما هو قضائي وما هو سياسي؛ تحولت سريعاً لتصبح موضوعا للتعلم» (بارت، 1970: 175).

كان من أوائل معلمي البلاغة، وبطريقة أو بأخرى مخترعها، اليوناني كوراكس، الذي كتب وقتها كتيباً (مفقود منذ ذلك الوقت)، صار الأساس الذي بنى عليه كل الخطباء من بعده. ولكن إلى من كان يتوجه هذا الموجز؟ في الأساس إلى الكتّاب الذين امتهنوا كتابة الخطب والمرافعات، لأولئك الذين سيتواجهون أمام العدالة. وكانت للنظام القضائي اليوناني خصوصية: هي أن على المدعي والمتهم الحضور شخصياً والدفاع بلسانيهما أمام القضاة والمحلفين الشعبيين. وكان تقدير شرعية قضاياهم يعتمد على ذلك.

كتيب كوراكس: قدم كوراكس مجموعة من الآليات التي تساعد على الحِجَاج بطريقة فعالة أمام المحاكم، مما يفيد أن البلاغة ولدت في سياق قضائي، ومن رحم التفكير في الطرق التي تسمح بوضع طريقة فعَّالة للكلام. وهذا الكتيب الموجز لم يصلنا منه سوى آثار غير مباشرة، خاصة عن طريق أرسطو الذي يستشهد به. وهو، كما يعتقد بنوا (Benoit): «مصنف من الحيل والخدع لكل جزء من الخطاب، وصيغ للبداية، واحتياطات بلاغية للاستهلال، ومهارات لترتيب الأحداث المسرودة للقضية، وحجج متخصصة، وألف وسيلة تفصيلية للإثبات والتفنيد، سواء أكان في الاتهام أم في الدفاع» (1983: 13). أما روبول فيرى فيه: «مجموعة من الإرشادات العملية المصحوبة بأمثلة يستخدمها كل من يخضع للمحاكمة» (1991: 14).

ما الإجراءات التي ضبطها وركز عليها كوراكس؟ إنها تتكون أساساً من نوعين: فبداية، كل خطاب يراد له أن يكون مقنعاً يجب أن يكون منظماً. ولقد اخترع كوراكس ترتيب الخطاب البلاغي بهدف السيطرة على لحظة الخطاب: «كان يريد، كما يقول لنا نص قديم، أن يخفف بالإطراء والكلام اللبق من هيجان الجموع، وهذا ما سماه بالاستهلال (l'exorde). وبعد استرعاء الانتباه، يعرض موضوع القضية. ثم بعد ذلك ينتقل إلى المناقشة الممزوجة بالاستطرادات، التي سيثبت بها أدلته. وأخيراً، الخاتمة التي يلخص فيها دوافعه، ويجمع فيها كل قوته لكي يستميل المتلقي، بعد أن يكون قد حرك مشاعره» (بنوا، 1983: 14). هذه الأجزاء الأربعة: الاستهلال، وسرد وتقديم الأحداث، والمناقشة ثم الختام، أصبحت بعد كوراكس أحد المعايير الرئيسة في الخطاب البلاغي. ويمكن بصفة عامة القول إنَّها لا تزال، إلى اليوم، تمثل معياراً عاماً في الكلام الشفهي أو في الكتابة التي يراد منها الدفاع عن رأي ما.

الأجزاء الأربعة للخطاب البلاغي كما يقدمها كوراكس

الاستهلال	تقديم الأحداث	المناقشة	الخاتمة
استرعاء انتباه المتلقي	عرض القضية	تقديم الحجج الداعمة للقضية	الانتهاء من خلال صيغة تلخيصية

لكن كوراكس لا يكتفي باقتراح خطة للخطاب، وإنما يضع نسقاً لصيغ الاستدلال الحِجَاجية النمطية. وقد اخترع أولها، وهو الكوراكس «corax» الذي يحمل اسمه، والذي يقوم على دعم فكرة أن الشخص لا يمكن أن يرتكب فعلاً؛ لأنه كان من الواضح أكثر من اللازم أنه قادر على ذلك. هذه الحجة يصفها أرسطو، في كتابه «البلاغة»، الذي وضعه بعد قرن ونصف من ذلك، عندما يعلق على فن كوراكس بالقول: «عندما يدفع الشخص عن نفسه التهمة الموجهة إليه، وكان شخصاً ضعيفاً مثلاً تتم ملاحقته بتهمة استخدام العنف، فإن دفاعه يكون أنه ليس من المحتمل أن يكون الفاعل. ولكن إذا كان المتهم شخصاً قوياً، فإن دفاعه يكون أنه ليس من المحتمل أن يكون هو الفاعل، لأنه من الواضح أن الظروف تشير إلى أنه سيشك جداً في أن يكون هو الفاعل» (أرسطو، الكتاب 2، 24، 1402a). وقد أعطى سقراط صيغة أخرى لذات الحجة في فيدر (Phèdre). وهنا سنجد أن هذه الحجة لا قيمة لها إلا في ظل عدم وجود وسيلة (كالاعتراف أو الشهادة) للتحقق من أن المتهم هو الفاعل الحقيقي.

ولفهم كيفية عمل هذه البلاغة الأولى، يجب أن نتذكر ذلك الواقع، الذي نراه غريباً اليوم، وهو أن تعلّم البلاغة كان يعني، قبل أي شيء، امتلاك كراسة من الصيغ الجاهزة التي لا تحتاج غير الاستفادة منها في هذه أو تلك الظروف. وكما يقول روبول فإنه يتم اختراع مسلمات (Lieux)[11]، وهي حجج نموذجية: «يكفي حفظها عن ظهر قلب، وإخراجها في لحظة المرافعة. هكذا في الاستهلال تكون البداية بالقول إنّه ليس خطيباً، والتعبير عن براعة الخصم، إلخ». (1991: 16).

هذه البلاغة الأولى، كما نلاحظ، كانت مهتمة أساساً بالفعالية القضائية ثم بعد ذلك السياسية. والسؤال الذي يُطرح إذاً هو: كيف يمكن معرفة ما يحكم عليه بأنه مُقنع بالنسبة للمتلقين (المواطنين اليونانيين، ثم بعد ذلك بفترة الرومانيين)؟ هذا السؤال، الذي لا يزال قيد الطرح حتى الآن، كان الشغل الشاغل، وموضوعاً لمناقشات كثيرة بين فلاسفة ذلك العصر. فهل يكفي لكي يكون الخطاب مقنعاً، أن يكون ذا ترتيب جيد، وموزون، ويحمل صيغاً شعريةً ذات نهايات جيدة، كتلك التي وضعها قورجياس (Gorgias)، والتي انتقده أفلاطون بسببها؟ هل يجب للإقناع استدعاء الأحاسيس والمشاعر كما يقول ترازيماك

(11) مصطلح ظهر منه بعد ذلك تعبير (Lieu commun) الذي يقصد به «المتعارف عليه». (المترجم).

(Trasymaque)، الذي وضع لهذا الهدف كتيباً في «تحريك العواطف»؟ هل يجب القول، مع أسقراط (Isocrate)، أن التعلم الآلي للمسلمات والفصاحة القوية أمور يجب التخلي عنها، وأن البلاغة ليست مقبولة إلا عندما تكون في خدمة القضايا الشريفة والنبيلة؟ هل يجب التخلي عن هذه المناهج والطرق، كما يريد سقراط (Socrate)، إذا لم يكن الهدف النهائي لها هو الحقيقة؟

بلاغة السفسطائيين

دخلت النظريات الأولى للحِجَاج، سريعاً، في الرهانات التي نتجت من النقاشات الفكرية الحادة، التي كانت تتميز بها أثينا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. فالسفسطائيون أو «الحكماء» استولوا على البلاغة، وأدخلوها في مدوّنة أوسع من المعارف، وكانوا أول من انتبه، أو على الأقل من وضع نظرية لقوة الكلام. وقد قاموا بذلك من خلال: أولا، الاهتمام بجمالية وقدرة اللغة الإقناعية، وثانياً بالنظر للكائن الإنساني ككل يحتويه القول. وهذا ما يساعد على فهم النص الوحيد المحفوظ للسفسطائي الأول بروتاقوراس دابدير (Protagoras d'Abdère 480-408)، الذي يقول فيه إن: «الإنسان هو مقياس كل الأشياء: تلك التي لها ماهية لها وجود، وتلك التي ليس لها ماهية ليس لها وجود».

لقد دشنت السفسطائية الوعي المستمر بعالم يمكن أن يكون متعلقاً باللغة، عالم مخلوق ومحتوى في الكلام الإنساني فقط. إنه ذلك التيه الذي حاول سقراط وأفلاطون إيقافه، من خلال وضعهما للتقليد الفلسفي الذي يحاول من حينها وباستمرار أن «يقود السفسطائية إلى العزلة، حيث إنها مضرة من وجهة نظر الفلسفة» (كاسن Cassin)[12].

وبعيداً عن التأملات النظرية عن الكائن (l'être). الذي كان مسيطراً حتى تلك الفترة، لم يكتف السفسطائيون بأن يكونوا منظرين أو مفكرين، وإنما: «اختاروا أن يكونوا معلمين محترفين، غرباء متنقلين، يتاجرون بحكمتهم، وثقافتهم، وقدراتهم. ولكنهم في الوقت ذاته كانوا أشخاصاً لهم قوة، يعرفون كيف يقنعون القضاة، وكيف يغيرون رأي الجموع، وكيف يؤدون المهام على أفضل وجه، وكيف يضعون القوانين لمدينة جديدة، وكيف يؤهلون الناس للتعامل مع الديمقراطية... باختصار، كانوا يؤدون عملاً سياسياً» (كاسن، سابق).

---

(12) دائرة المعارف الشاملة (Encyclopaedia Universalis). (المترجم).

وكان بروديكوس دو سيوس (Prodicos de Céos 465-460)، وهو أحد أشهر السفسطائيين، يذهب من مدينة إلى أخرى لإعطاء الدروس. يقول عنه جان فوالكان (Jean-Voilquin): «كان يطلب خمسين دراخمة للدرس الكامل عن ملاءمة المصطلحات في الأسلوب، ودراخمة واحدة للدروس المعدّة للاستخدام الشعبي العام... لم يكن عالماً ولا فيلسوفاً. لقد اكتفي بأن يكون بارعاً في فن الكلام عن «معرفة»، في الكثير من المواضيع. لقد اتخذ تخصصاً في مسائل المفردات والنحو، وهي جزء مهم من البلاغة التي كان يعلّمها» (1964: 209).

أما النقد الذي وُجّه للسفسطائيين، بعد ذلك، فهو في جانب كبير منه غير محق. إن دورهم الجوهري كان، كما يقول روبريو: «تنظيم البنيات التربوية الأساسية في المجالات المختلفة، في النحو، والفصاحة، وحتى العلوم. ولا ننسى تأثيرهم في تطوير الذهنية النقدية» (1993: 9). وقد أضافوا طرقاً فعالة لنظرية الحِجَاج؛ كتناقض الأفكار (antilogie)، وكما يقول روبان (Robin): «كان مشروعهم تسليح التلميذ لمواجهة كل الصراعات الفكرية، أو الأحداث التي يمكن أن تحدث في الحياة الاجتماعية. فكان منهجهم أساساً هو تناقض الأفكار، ومعارضة الأطروحات المحتملة والمتعلقة ببعض المواضيع، أو الفرضيات، المعرّفة والمصنّفة كما ينبغي. لقد كان الهدف هو تعليم كيفية النقد والمناقشة، وترتيب المناظرة بين العقول» (1923: 168).

لقد تم توجيه اللوم إلى السفسطائيين بسبب المرونة الكبيرة في عرض الآراء التي أدت إلى شيء من النسبية. والواقع أن: «روح دروسهم كانت تتطلب ألا يكون للشخص منهم التزام، وإنما أن يوضح بأن كل شيء قابل للدفاع عنه» (روبان، 1923: 171). إن إسهام السفسطائيين في نظرية الحِجَاج تبقى جوهرية (وكذلك أفكارهم عن اللغة)، فلقد وضعوا، على سبيل المثال، نظاماً لاستخدام محسنات التأطير (figures de cadrage) التي تسمح بتقديم وجهة نظر، أو تصويب رؤية، أو ميزة لموضوع، أو لرأي ما. وقد كان ذلك أيضا فناً يسمح بإظهار الأقل ضعفاً، وهذا يعد السمة الأكثر قوة. هذا الابتكار ما كان ليتحقق من دون السياق الديمقراطي الذي يساعد على مناقشة كل شيء، في حين أن العادة جرت على استخدام حجج الصلاحية، أو الارتكاز إلى القيم والمسلمات المشتركة، مع ضرورة إخضاعها للنظام. لهذا كان يجب أن يتم

القبول بوجهة النظر القائلة بأن هناك أكثر من طريقة لرؤية الأشياء. وهذا ما سعى إليه السفسطائيون.

في كل الأحوال، فإننا نشارك روبان وجهة نظره في أن: «سفسطائية القرن الخامس تمثل مجموعة من الجهود المستقلة للوفاء بحاجات متطابقة (identiques)، من خلال وسائل متماثلة (analogues). إنها حاجات الزمان والمكان، حيث لكل مواطن موقع للمشاركة في إدارة أو تصريف شؤون المدينة، ولا يحتاج إلا للكلام لكي يتفوق في فعله الشخصي؛ لذا، فإن هذا المواطن يحتاج للمربي الذي يعلمه فن النجاح الشخصي في الحياة الاجتماعية، وذلك بتجنيبه ضياع الوقت وخيبات التجربة. إنه هذا الفن الذي يُعتبر السفسطائيون، من حيث المبدأ، معلميه: إنهم يدرّسون علم النصيحة الجيدة في العلاقات العامة والخاصة، أي الفضيلة بالمعنى الدقيق الذي تم تعريفة قبل قليل» (1923: 166).

بلاغة سقراط

إذا كان من الطبيعي توضيح التعارض بين نظريات المعرفة التي أنتجها ودافع عنها مختلف المفكرين السفسطائيين، وتلك التي أنتجها سقراط وأفلاطون؛ فإنه من غير المجدي البحث عن تناقض كبير، كما يحاول البعض فعله، بين بلاغة هؤلاء وبلاغة أولئك. وإذا كان لا يوجد اتصال، من وجهة نظر إبستيمولوجية المعرفة؛ فإنه توجد متابعة وتقدم من وجهة نظر فن الإقناع.

في الواقع، أنَّ سقراط لم يرفض البلاغة، لكنه عرض توسيع دائرة استخدامها من جهة، وربطها بمناهج البحث عن الحقيقة من جهة أخرى. فعندما يعّرف سقراط فن البلاغة، في فيدر، وهو نص مفصلي لعرض وجهة النظر هذه، بأنه: «امتلاك التأثير على الأنفس» (فيدر: 143)؛ فإنه يضيف أن هذا لا يتعلق فقط «بالخطابات التي توجه في المحاكم، والاجتماعات العامة، وإنما أيضاً بتلك التي تستخدم في الاجتماعات الخاصة»، وأن الأمر يتعلق «بفن لا يختلف وفقاً لصغر، أو كبر الموضوع المطروح للنقاش» (المرجع السابق: 144). كان رد فيدر عليه، أن استخدام البلاغة مرتبط بالمحاكمات وأنه لم «يسمع أن هذا الفن توسع أكثر من ذلك» (المرجع السابق). هكذا فإن من كان مطلوباً منه الرد على سقراط، ولعب دور«محامي الشيطان»، يشهد بتطور، كان سقراط يتمناه، وهو أن

البلاغة لا تزال تطبق بطريقة أكبر في الدائرة الضيقة للمحكمة أو المنتديات العامة، ولكن لم يعد ذلك هو مكانها الوحيد.

أعطى سقراط، بعد ذلك، لفيدر«درساً في المنهجية». لقد شرح لصديقه الشاب أنه، إلى ذلك الوقت، لم يكن يستخدم الخطباء سوى تقنيات غير متقنة. وقد اقترح بدايةً «نهجين من المفيد أن يتيح لنا الفن اكتساب قوتهما» (المرجع السابق: 156). والمقصود هنا هو: أولاً، التوليف (synthèse)، الذي يسمح بتجميع عناصر مشتتة في كل الجهات صوب شكل واحد، وثانياً، «التقسيم» (التحليل)، الذي يسمح بعملية «معاكسة، وهي تقسيم العناصر باتباع ترابطها الطبيعي، وببذل ما في الوسع لعدم كسر أي جزء، خلافا لما يفعل الجزار السيئ الذي يقطع قرباناً» (المرجع السابق: 157). ومن يتبع هذه الطرق سيسمى «جدلياً» (dialecticien). وبعد ذلك، اقترح سقراط أن يتم إكمال هذا المنهج من خلال معرفة الجمهور المراد إقناعه.

نقد البلاغة

منذ ظهور البلاغة حاملة في داخلها نظريات الحِجَاج، وهي موضوع يتعرض للنقد كثيراً. وكما أشارت فرنسواز ديسبورد فإن «الأدبيات التي أحاطت بالبلاغة، في بداياتها، مليئة باللعنات ضد المخادعين، الذين يوقعون البسطاء في الفخاخ، وضد الديماغوجيين، الداعمين للجماهير في آرائهم الخاطئة. لكن، في ذات الوقت، ظهرت فكرة البلاغة الأخلاقية والمشروعة» (1996: 21). وهذه الانتقادات كانت على مستوى حداثة وقوة البلاغة، ولكن أيضاً على مستوى عدم المساواة في الوصول إلى التمكن من اللغة، والمواقف التواصلية التي يفترضها استخدامها. ويمكن التفريق بين أربعة أنواع من الانتقادات.

النقد الأول: ينطلق من التعارض بين الطبيعي والمصطنع، بين اللغة، التي يمارسها تلقائياً كل شخص، وخدعة تشكّلها لغرض الحِجَاج والإقناع. فمنذ عام 423 كان أرسطوفان (Aristophane) يسخر من أولئك الذين يهتمون بالكلمات أكثر من اهتمامهم بالأشياء. وخلف هذا النقد يتضح نقد للتعليم الذي وضع مع النظريات الأولى للحِجَاج، وكذلك نقد «للمثقفين». وكما لاحظ روبير فلاسوليير (Robert Flacelière)، في كتابه عن الحياة اليومية في اليونان «يسخر الجميع بالتأكيد، وبصورة طبيعية، من هؤلاء المثقفين ذوي الملابس الفاخرة، المغرورين والمتحذلقين، الذين يُعتبرون هدفاً ممتازاً لسخرية الشعراء

الكوميديين. فأرسطوفان، في السرب (Les Nuées) يقدم سقراط اليوناني كواحد منهم، محبوساً في صومعته أو متعلقاً في مقصورة لدراسة الظواهر الفلكية والكواكب عن كثب» (1959: 144).

النقد الثاني: يتعلق بلا أخلاقية مثل هذه الممارسات: يمكن أن تكون البلاغة تقنية ارتزاقية لخدمة أي قضية، خاصة الأكثر سوءاً منها، أي تلك التي لا تجد مبرراً لذاتها. إنها أداة الديماغوجيين، الذين يقيمون في المجمع ويتلاعبون بالجماهير من خلال لغتهم الجميلة. وهذا النقد يمزج بين الاستخدام غير الأخلاقي وبين الآلية ذاتها. إلا أنه لا يمكن وصم جميع البلاغيين بأنهم ديماغوجيون.

النقد الثالث: هو نقد أفلاطون الذي هاجم بقوة النسبية لدى بعض السفسطائيين، الذي كان يرغب بجعل البلاغة أداة فكرية لخدمة البحث عن الحقيقة، وليس فقط آلية للإقناع بالآراء التي تتشكل خارجها. والواقع أن نقد أفلاطون أصبح في النهاية مفيداً للبلاغة، إذ أثراها في طرقها وحججها الجديدة.

النقد الرابع: الموجه للبلاغة، ليس له علاقة بالأخلاق ولا بالفلسفة، وإنما هو سياسي: البلاغة تعطي الناس الكلام - ويا له من كلام! إنها وسيلة الديمقراطية. ولهذا توجهت إليها انتقادات مناصري تفرد الأقلية بالسلطة. هذا النقد الموجه للبلاغة كان، بالتأكيد، الأكثر تأثيراً في أوقات لاحقة، حيث إن مراحل تواري الديمقراطية (ابتداءً بسلطة الثلاثين في أثينا التي منعت تعليم البلاغة) توافقت بصورة جلية مع التراجع العام لثقافة الإقناع التي تتميز بها.

2- أرسطو وأساسيات نظرية الحِجَاج

إن الإجابة، على الانتقادات الأخلاقية والفلسفية الموجهة للنظريات الأولى في الحِجَاج، قدمها أرسطو (384- 322). فقد كانت تصوراته الجديدة تتعارض مع الآلية السفسطائية، ومع مسلماتها المجهزة سلفاً، ومع إجراءاتها، ووقاحتها المستخدمة من قبل بعض مريديها. كما كانت تتعارض مع ردة الفعل النخبوية لأفلاطون، صاحب المدينة الفاضلة، التي تعبر عن نوع من العدائية للديمقراطية.

كان أرسطو بالتأكيد تلميذاً لأفلاطون في أكاديميته التي أنشأها (دخلها في 366)، ولكنه استقل فكرياً بسرعة عن معلمه؛ ليصبح مؤلفاً لأعمال واسعة وذات تأثير مستمر (أكثر من تسعمائة نص أغلبها مفقود). وقد أنشأ أرسطو في (335) مدرسة، في قاعة رياضة، تسمى الثانوية (Lycée)، حيث كان التدريس يتم غالباً أثناء المشي (من هنا جاءت تسمية مشائي، أي يعلم أثناء المشي)، وكانت الفلسفة تدرَس في الصباح، وتدرّس البلاغة بعد الظهر. وقد كتب أرسطو الأجزاء الثلاثة من كتاب البلاغة بين عامي (329 و323).

الانفصال المزدوج

يمكن القول بأن بلاغة أرسطو أخذت منحى مختلفاً وانفصلت عن كل تلك التي سبقتها، سواء بلاغة سقراط، أو بلاغة السفسطائيين الآخرين (أولئك الذين نقدهم أفلاطون)، أو بلاغة صناع الكلام منذ تيزياس (Tisias).

الانفصال الأول يتعلق بالرابط الذي كان يجمع، على الأقل عند الأفلاطونيين، البلاغة مع الأخلاق، ومع الحقيقة، دون تمييز. فبالنسبة لأفلاطون، كل طريقة في هذا الحقل يجب أن يكون موضوعها البحث عن الحقيقة أو على الأقل، الارتكاز إليها. ومن يرفض هذا المبدأ يُصنف بين السفسطائيين الوقحين غير الأخلاقيين (بالنسبة لأفلاطون)، أولئك الذين كانوا يدعون، استناداً إلى قوة اللغة، أن الحقيقة لا وجود لها، وأن الإنسان هو «مقياس كل شيء»، هناك حيث تكون الحقيقة هي تلك المتعلقة «بالجوهرانيات (essences)».

قام أرسطو بالنأي عن هذا الخيار، وذلك انطلاقاً من مسلمتين جديدتين. فمن جهة، جعل من البلاغة آلية غير مبالية حيناً بالأخلاق، أي أنها تفتقد الحس الأخلاقي (amorale)، لكنها ليست منافية له أو ضده (immorale). إنها تحيل الشخص الذي يستخدمها إلى ضميره، وإلى مسؤولياته أمام المدينة (المواطنة). فالبلاغة بالنسبة له عبارة عن أداة. وهذا يعني إمكانية استخدامها للخير كما تستخدم للشر، وتستخدم للعدل كما تستخدم للظلم: «بقدر ما الاستخدام الجيد يمكن أن يكون مفيداً، يمكن أن يكون الاستخدام السيئ ضاراً» (أرسطو، البلاغة، الكتاب 1، 1355b). ومن جهة أخرى، جعل أرسطو من البلاغة تقنية حِجَاجية لما هو قابل للصواب، وليس للحقيقة. والفرق كبير جداً. هذا الفصل المزدوج عن الأخلاق وعن الحقيقة حرر البلاغة وسمح لها أن تتطور كتقنية ذات مشروعية في المناظرات داخل الفضاء العام للمدينة.

إضافة لذلك، أجرى أرسطو عملية فصل ثانية ميزته عن صُنّاع الكلام. وهكذا يطرح الفيلسوف اليوناني بنفسه الهوة الموجودة بينهم: «تيزياس، بعد المؤسسين، ثم ترازيماك (Trasymaque) بعده، وبعد ذلك تيودور (Theodore) وآخرون كثر، قدموا إسهاماتهم الخاصة. ولهذا فليس من المفاجئ أن هذا الفن قد اتسع كثيراً جداً. وعلى العكس من ذلك، فيما يخص البحث الحالي، لا يستطيع أحد القول بأن جزءاً منه قد سبق عمله وأن جزءاً آخر ليس كذلك: في الواقع لم يكن هناك شيء إطلاقاً. ذلك أن التعليم الذي كان يقدمه الأساتذة، مقابل الراتب، من خلال تدريس الحجج الجدلية، لا يختلف عما كان يقوم به قورجياس. كان الأساتذة يدرّسون ومن ثم يتم الحفظ عن ظهر قلب. البعض دروسهم في الخطاب البلاغي، والبعض في خطاب آخر على صيغة أسئلة يعتقد أن حجج المتحاورين لا تخرج في الغالب عنها. وهكذا فإن التعليم الذي كانوا يقدمونه للطلاب سريع، لكن يفتقر للجودة. وبتدريسهم لنتيجة الفن وليس الفن نفسه، كانوا يعتقدون أن ذلك هو التعليم (...) وإضافة لذلك، كانت توجد أعمال كثيرة وقديمة تتعلق بمواد البلاغة. أما فيما يخص الاستدلال فليس لدينا شيء نستطيع ذكره، لكننا قضينا وقتاً طويلاً وقمنا ببحوث مجهدة» (أرسطو، تفنيدات سفسطائية 16، 1831b).

إن بلاغة أرسطو هي «بلاغة استدلال» أكثر منها «بلاغة مشاعر» : فصناع الكلام «يخصصون الجزء الأكبر من كتاباتهم لمسائل خارجة عن ماهية الموضوع». ولكي يؤثروا في القاضي؛ فإنهم يستخدمون «الظن، الشفقة، الغضب وغيرها من المشاعر النفسية» (البلاغة، الكتاب 1، 1354a)، من دون استخدام «دلائل متخصصة». وإذا عممنا القاعدة الموجودة في بعض المدن وهي: منع «الدفاع خارج إطار القضية»، فإن صناع الكلام، الذين لا يستخدمون سوى وسائل «فائقة الإحكام» (extratechniques)، «لا يبق لديهم شيء يقولونه».

بعد القيام بهذين الفصلين، استطاع أرسطو أن يوسع حقل البلاغة لأبعد من المجال القضائي، بحيث يشمل كل الأماكن التي يستخدم فيها الحِجَاج، وذلك بخلاف صناع الكلام الذين حصروه في المحكمة، والأفلاطونيين الذين حصروه في النقاش الفلسفي. وبهذا أصبح للبلاغة، وللمرة الأولى بُعد عام - ما عدا حقل الحقيقة - كما أصبح لها، وللمرة الأولى أيضاً، نظرية منظمةً. وهكذا لم تعد البلاغة تُعرّف بأنها، ببساطة، فن الإقناع، وإنما «القدرة على الكشف بتفكر، عند كل حالة، عما يمكن أن يكون مقنعاً فيها»

(البلاغة، الكتاب 1، 2، 1355b)، ويكون ذلك، بالتأكيد، باستخدام تلك القدرة فعلياً في كل المواقف التي تظهر الحاجة فيها للإقناع.

الضروب الخطابية

اقترح أرسطو التمييز بين أنواع مختلفة من المتلقين. وهذا التمييز يحيل إلى العديد من المواقف الاجتماعية التي ينتشر فيها فن الإقناع. فالمتلقي يمثل، بالنسبة له «منتهى» كل خطاب، وإن كان كل خطاب يشمل بكل وضوح ثلاثة أجزاء أساسية: «المتكلم، الموضوع الذي يتكلم عنه، الشخص الذي يتوجه إليه بحديثه» (البلاغة، الكتاب 1، 3، 1358b). وبما أنه توجد أنواع مختلفة من المتلقين؛ فإنه ستكون هناك ضروب خطابية مختلفة. وهذا يمثل الموضوع الأهم للجزء الأول في كتابه «البلاغة». ما أنواع المتلقين؟ يميز أرسطو بين ثلاثة متلقين، هم: من يشهد الخطاب، ومن يحكم على موقف حدث في الماضي، وذلك الذي يحكم على موقف مستقبلي. الأول هو المستمع لخطاب يسمى «استدلالي» (épidictique)، والنموذج الذي يمثله هو المدح. والمتلقي الثاني هو الحكم بالمعنى الحرفي، ويكون ذلك في إطار قضية. وهذا الخطاب ينتمي للضرب «القضائي» (judiciaire). والمتلقي الثالث هو العضو في المجلس، وعادة ما يكون المجمع، الذي ينبغي عليه اختيار سياسة مستقبلية؛ والخطاب في هذه الحالة ينتمي للضرب «الاستشاري» (délibératif).

ضرب الخطاب	طبيعة الخطاب	القيم المساعدة	زمنية الخطاب	الموقف الخطابي	إجراءات الحجاج	نوع الخطيب	شكل الخطاب	الموضوع الذي يتناوله
الاستدلالي	المدح، الذم	الجمال، الفضيلة، القبح	الحاضر	المدح أمام العموم	التعظيم	سفسطائي	خطبة في المدح أو الرثاء	القيم
القضائي	الحكم	العدل والظلم	الماضي	المحكمة	القياس المضمر enthymème	متهم أو مشتك	مرافعة	البراءة، الإدانة
الاستشاري	استشارة واتخاذ قرار	المفيد، الضار، السعادة	المستقبل	الجوراء، جمعية وطنية	المثال	مواطن	خطبة	الميزانية، الأمن، الاقتصاد، القانون

المجال الذي يعتقد أرسطو أنه من الملائم استخدام تقنية الإقناع فيه هو المدح (أو اللوم)، والحكم، والاستشارة من أجل اتخاذ القرار. وهذا فضاء عريض، حيث إنه يشمل الفضاء العام بأكمله. انطلاقاً من هنا، قام أرسطو بتحديد هذه الضروب الثلاثة وأنتج شيئاً يمكن أن يكون «نظرية لمواقف الحِجَاج»، وذلك بمحاولة فهم خصوصية كل موقف، والقيم التي يحركها، وإجراءات الحِجَاج التي ترتبط به بشكل أساسي. هذه النظرية يمكن اعتبارها، بطريقة أو بأخرى، صيغة أولية لنظرية في التلقي، خاصة أنه سيكون نوع الموقف الحِجَاجي في الأساس هو المحدد للإجراءات والقيم والضروب... إلخ. ويرى بارت في الكتاب الأول من بلاغة أرسطو «كتاب المرسِل»، وفي الكتاب الثالث «كتاب الرسالة نفسها»، وفي الكتاب الثاني «كتاب المتلقي» (1970: 179).

لم يتأخر أرسطو في وصف هذه المواقف المعروفة لدى جميع طلابه وقراء عصره (كمدح الجنود الذين ماتوا في الحرب)؛ بل على العكس من ذلك، فقد فصّل المواضيع التي يقوم عليها فعلياً كل ضرب من هذه الضروب. ففرّق بين أكثر من موضوع قابل للاستشارة: ما يتعلق بأمن المدينة، الحرب والسلام، «حماية الأراضي»، وما يتعلق بالاقتصاد، وميزانية المدينة، وضرورة «استيراد» و«تصدير» الغذاء. كما تناول بلا شك ما يتعلق بسن القوانين التي يقوم عليها «سلام المدينة». وفي كل الحالات، يجب التفريق بين المفيد والضار، والهدف النهائي للاستشارة هو البحث عن «السعادة»، التي يجب ألا ينظر إليها هنا، بصورة غير صحيحة، من زاوية الاهتمام الحديث الذي يبحث عن المتعة الفردية، وإنما كتأكيد للغيرية، وهي قيمة أساسية في العالم القديم.

أما المواضيع المفضلة للخطاب الاستدلالي فهي الفضائل والمساوئ، والجمال والقبح «ذلك أنها أهداف من يمدح أو يلوم». وهنا يقترب الاهتمام بالبعد الأخلاقي مع الاهتمام بالبعد الجمالي. فالفضيلة تم تحويرها عند أرسطو لتصبح ما يتعلق بالشجاعة، والاعتدال، والحرية، والرقة، والحكمة العملية والنظرية، حيث تكون القيم الأكثر أهمية هي «بالضرورة الأكثر فائدة للآخرين، طالما أن الفضيلة هي القدرة على أن نكون خيّرين» (البلاغة، الكتاب 1366b ,9 ,1). وتكون الأفعال الحميدة، مثلاً، هي «تلك التي يكون ثمنها السعادة» وليس المال. إنها تلك التي لا نقوم بها «من أجل الذات».

إن الثناء موقف ملموس يفيد التذكير، في مناسبة محددة (عزاء، وليمة، تقديم جائزة)، بالقيم الأساسية للمواطنة. وهو أيضاً أحد التمارين لمدرسة البلاغة التي يتم فيها التدريب

على الثناء على المتناقض؛ كمديح الحيوانات ومديح الملح. وهو مناسبة لتذّكر المتفق عليه (doxa) في أقوى جوانبه. كما يتيح الثناء أيضاً، وفقاً لباربرا كاسن (Barbara Cassin)، التي تعتقد أن هذه النقطة تم التلميح إليها بوضوح من أرسطو، تغيير القيم المتفق عليها و«خلق أخرى» (1991: 282). وبهذا المعنى فإن هذه الكاتبة تتحدث عن ضرب سياسي من الخطاب. فممارسة الثناء قديمة في حياة الإغريق- وقد استمرت بعدهم إلى يومنا هذا بأشكال متغيرة، لكن يبدو أن أرسطو كان أول من اقترح لها نظرية، وقام بدمجها في النطاق الأكثر شهرة الذي تكونه الفصاحة القضائية أو الاستشارية.

الاستدلال الحِجَاجي

• الأدلة الثلاثة

فرق أرسطو بين ثلاثة أنواع من الأدلة التي يضعها خطاب الحِجَاج موضوع التنفيذ: تلك التي تعتمد على شخصية الخطيب (l'éthos)، وتلك المعتمدة على محتوى الخطاب ذاته (le logos)، وأخيراً تلك المعتمدة على مشاعر المتلقي (le pathos). وتوافقاً مع الاتجاه العام الذي اقترحه أرسطو؛ فإن محتوى الخطاب يركز على إظهار «احتمالية الصواب فيما يحتويه كل موضوع من قدرة على الإقناع». إن استدعاء شخصية الخطيب (كاللطف أو الثقة التي يوحي بها)، أو مشاعر المتلقي، التي ننجح بواسطتها في إثارته أو إعداده مسبقاً لقضية ما، تختلف بالنسبة للفيلسوف عن الأساليب التي يستخدمها المتخصصون. فهذا الاستدعاء ينبغي أن يأتي من الخطاب ذاته، وأن يكون تابعاً له، وليس هو المحرك الأساسي لعملية الإقناع، حيث إنه قد يؤدي ذلك إلى «المرافعة خارج إطار القضية». وبوضع هذا الشرط؛ فالخطيب لا يستطيع إذن الاستغناء عن دراسة الحالة النفسية للمتلقين الذين يتوجه إليهم.

إن لب خطاب الحِجَاج مركب من استدلال يقدمه أرسطو فيما يشبه البرهان (quasi-demonstration). وهناك نوعان ممكنان فقط من الاستدلال: المثال (l'exemple) والقياس المضمر (l'enthymème). ويعني الحِجَاج بالمثال الاعتماد على حالة، أو أكثر، شبيهة بتلك التي نود الإقناع بها، وذلك لاستنباط الدقة أو المشروعية. وهكذا فلكي نقنع بأن دينيس (Denys) يتطلع إلى أن يصبح مستبداً، فإننا نبرهن كما يلي: «بما أن دينيس يطلب حراسة، فإنه يتطلع إلى الاستبداد؛ ففيما مضى اتبع بيسيسترات (Pisistrate)

هذه الخطة بطلبه للحراسة، وعندما حصل عليها أصبح مستبداً. وكذلك الحال مع تياجن (Théagène) في ميجار» (البلاغة، الكتاب 1. 2. 1357b). من هذه الحالات الخاصة (بيسيسترات وتياجن)، نستنبط قاعدة عامة (أولئك الذين يتطلعون إلى الاستبداد يطلبون الحراسة) يمكن أن تكون قابلة للتطبيق على دينيس، الذي يطلب الحراسة. ونرى هنا جيداً طبيعة الاستدلال البلاغي، التي تمثل الصرامة وفي الوقت ذاته، وبكل بساطة، قابلية الصواب.

وكان القياس المضمر أيضاً بالنسبة لأرسطو نوعاً من القياس المؤلف (syllogisme) الذي ينتمي لقابلية الصواب. وفي هذه الحالة يكون الانطلاق من مقدمة ما بهدف استنتاج فكرة جديدة ومختلفة، لكنها ناتجة بالضرورة من تلك المقدمة. ويقرر أرسطو أنه «لا توجد وسائل أخرى غير هذه» (البلاغة، الكتاب 1. 2. 1356b)، وفي الوقت ذاته يعترف بتفضيله القياس المضمر: «بدون شك، إن استخدام الخطاب الواقعي الذي ينتج من الأمثلة ليس أقل شأننا في الإقناع؛ لكننا نستحسن، أكثر، الخطاب ذا القياس» (البلاغة، الكتاب 1. 2. 1356b).

وتجدر الإشارة، مع ذلك، إلى أن أرسطو عندما يصف الضرب الاستدلالي (épidictique)؛ فإنه يثير ما يمكن تسميته بالصنف الثالث من الاستدلال الحِجَاجي، وهو الإسهاب (l'amplification) «الذي يعنى بتبيان السمو وعلو الشأن»: «من بين الأشكال التي تشترك فيها كل ضروب البلاغة، يعتبر الإسهاب الأكثر مناسبة للضرب الاستدلالي. ذلك أن مادته هي أحداث متفق عليها من الجميع؛ ولا يبقى غير أن يُضفى عليها الاهتمام والجمال. أما الأمثال؛ فإنها تتوافق مع النوع الاستشاري، حيث إنه من خلال الماضي يتم التنبؤ والحكم على المستقبل. وفيما يخص القياس المضمر؛ فإنه أكثر ملاءمة للضرب القضائي، حيث إنه يتعلق بحدث لم يسلط عليه النور، ويتطلب البحث عن السبب والبرهان» (البلاغة الكتاب 1. 9. 1368a). وهذا شكل معروف منذ القدم، إذا صدقنا المآخذ التي وجهها أفلاطون للسفسطائيين من أنهم يعلون من شأن ما هو تافه ويضعون من قيمة ما هو عال الشأن، بأساليب إسهاب وإيجاز تهدف إلى تقديم رأي ما في شكل مقنع.

موقع البلاغة في النسق الفكري لأرسطو

عند أرسطو، ما هي المواضيع التي تنتمي للبلاغة؟ بالتأكيد ليست كل المواضيع؛ فالبلاغة تتناول القابل للمناقشة والقابل للصواب. إن البلاغة «لا تتناول غير موضوعات

تطرح عادة للتشاور» أو «المسائل التي يتضح أنها قابلة لأن يكون لها حلان متعارضان» (البلاغة، الكتاب 1، 2، 1356a-b). ما ينتمي للبداهة والبرهان العلمي (يتحدث أرسطو هنا عن «التحليلية») يعتبر خارج حقل المواضيع البلاغية.

إن أي موضوع حول الفهم، الذي يقترح له العلم من الآن فصاعداً «مبدأ أول»، هو خارج إطار سلطة البلاغة. ومع ذلك فأرسطو لم يقل، بوضوح، ما إذا كانت بعض المواضيع تبقى دائماً، بطبيعتها، بعيداً عن أن تقام عليها حقيقة ما. وقد يفهم من هذا أن حقل البلاغة يمكن أن يضيق تحت تطورات العلم، ولا يبقى له إلا دور بسيط، يتعلق بتعميم ما يشترك فيه الناس.

بصيغة أخرى، هل احتمالية الصواب، التي تعرّف، أحياناً بتبسيط، كحقيقة محتملة، هي طبيعة لبعض المواضيع أم أنها حال انتظار وظفتهما الحقيقة بدورها؟ فيما يتعلق بهذه النقطة نستطيع اتباع تفسير اوليفييه روبول، الذي يرفض أي طرح لبلاغة أرسطو كسبيل أوحد، والذي على العكس من ذلك، يحيلها إلى «المواقف التي لا يمكن للبرهان أن يدخل فيها، وهذا ما يقتضي أن تمر من خلال (مفاهيم مشتركة)، ليست عبارة عن آراء عامة بسيطة، وإنما هي ما يستطيع كل فرد أن يجده [...] في مجالات يكون فيها الإصرار على إيجاد حلول علمية أمراً تنقصه العلمية» (1991: 38).

- **الديالكتيك والبلاغة**

في تصنيفه للمعرفة، يضع أرسطو البلاغة إلى جانب حقل آخر هو الديالكتيك. وكما يقول فإن المجالين «متشابهان»، من حيث إنهما يتعلقان بمسائل يشترك فيها كل الناس، ولا تتعلق «بالعلم». من بين كتبه الثلاثة عن البلاغة، يقابل الجزء الخامس من الأورقانون (l'Orga-non) وجهة النظر هذه تحت عنوان مواضع (Topiques)، حيث يصف ما هو الديالكتيك بقوله: «إنه أداة المعرفة المحتملة». وهو يشير إليه هنا كمنهج لإنتاج المعارف العامة، خاصة تلك التي يمكن أن تكون مفيدة في المواقف الخطابية الثلاثة التي أشرنا إليها (القضائي والسياسي والاستدلالي). أما البلاغة، فهي لا تنتج المعارف مثل الديالكتيك، وإنما هي منهج للإقناع.

إذن تدخل البلاغة، بالنسبة لهذا الفيلسوف، في نظام أكثر شمولية ينقسم إلى ثلاثة أجزاء أساسية هي: العلوم «التأملية» (théorétique) (الرياضيات والفيزياء واللاهوت)، وموضوعها المعرفة لذاتها، وبالتالي فإنها تفكيرية (spéculatives). وهناك العلوم «التطبيقية» (الأخلاق والاقتصاد والسياسة)، حيث يتركز الاهتمام فيها على النشاط

الذي يقوم به الفاعلون المطبقون لهذه العلوم. وهناك العلوم المسماة بـ«الشعرية»، التي تنتمي لها البلاغة، وهذه العلوم هي معرفة قوانين فن ما، وهو هنا فن الإقناع. ومع أرسطو، تحولت البلاغة، أخيراً، من تقنية تجريبية إلى تقنية لها قواعد رياضية خاضعة لنظرية محددة مع بقائها، كما كانت موجهة بشروط تطبيقها في مجتمع يعطي مساحة واسعة «لثقافة الإقناع»، ذلك لأنها في جوهرها ديموقراطية.

3 - البلاغة كثقافة مشتركة للعالم القديم

بعد الخروج من هذه المرحلة التأصيلية أصبحت البلاغة، كلغة شارحة موضوعها الخطاب، متناثرة جداً في مجموعة من الممارسات التي يضعها رولان بارت في أكثر من مستوى (انظر الجدول أدناه).

تعريفات البلاغة وفقاً لرولان بارت

وفقاً لبارت البلاغة هي:	
تقنية	مجموعة من القواعد، من الوصفات التي يسمح تطبيقها إقناع متلقي الخطاب.
حقل	في مرحلة أولى، هي موضوع تعليم يعتبر أحد أوائل المواد الأساسية حتى اختفائها من المناهج الدراسية في القرن التاسع عشر.
علم أولي	والذي يعين ويوسع ويصنف تأثيرات اللغة.
أخلاق	وهي مجموعة القواعد المعيارية اللغوية وفي ذات الوقت وصفة من التعليمات الأخلاقية.
ممارسة اجتماعية	والتي تسمح بالتأكد من «ملاءمة الكلام».

هذه المستويات الخمسة تصف جيداً، بالمقابل، الرهانات متعددة الأشكال لذلك الشيء الذي لا يعني فقط مجرد معرفة نظرية بسيطة. فالتعقيدات المعرفية لنظريات الحِجَاج تتعلق بعمليات التعارض التي تغطيها: فيما بين النظرية والتطبيق، وبين العلم والتقنية، وبين المعرفة والأخلاق، وبين الإبداع (في داخل النظرية اللغوية والممارسة) والاستخدام (في داخل مؤسسات التعليم)، وبين الفكرة واللغة.

وفي هذه الشبكة من التعارضات انتشرت البلاغة انطلاقاً من أرسطو، في الأعمال الرئيسة لشيشرون، وعند الكاتب المجهول للأدهرنيوم (Ad Hernnium)، وعند كانتيليان (Quintilien) والإغريقي هيرموجن (Hermogène). لقد كانت معايير التفكير وممارسات الحِجَاج موجودة وثابتة، لفترة طويلة، عبر الكتب الأربعة، التي كتبها هؤلاء الكتاب بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثالث بعد الميلاد: في الخطابة[13] لشيشرون (Cicéron)، وفي الأدهرنيوم، غير المعروف صاحبه (بعد أن ظل لفترة طويلة يعتقد بأنه يعود لشيشرون)، و في المؤسسة الخطابية[14] لكانتيليان، ودروس البلاغة في هيرموجن، المفقود جزء منه، الذي تعتبره فرنسواز ديسبورد «آخر إسهام كبير في النظرية البلاغية» (1996: 108).

إن نظرية الحِجَاج، التي ارتبطت كثيراً باتساع جمهورية رومانية كانت تعطي أهمية كبيرة للكلام وللنقاشات العامة، وسيطرت بالكامل تقريباً على فضاء التفكير البلاغي، أي فن اللغة بشكل عام. إنها نظرية حية ومتعددة اقترنت بالثقافة العامة، وبالثقافة السياسية لعصر جعل من الخطاب بهدف الإقناع في قلب كل شيء (Achard 1994)، وجعل من الخطيب البطل الحقيقي الحديث الذي سيبقى نموذجه شيشرون، المحامي والمدافع عن حقوق الشعب، ورجل السياسة، ومثال الفضيلة.

وتقدم النظرية مجموعة من أصول التركيب للخطاب الإقناعي، التي لا تزال صلاحيتها قائمة إلى اليوم. فتقليدياً كان يُميز بين خمسة أجزاء، هي عبارة عن تصنيفات محددة (كيف نبني فعلياً خطاباً وكيف نعرضه)، وتصنيفات محددة للتحليل (كيف يعمل مثل هذا الخطاب). وهذه التصنيفات مبينة في الجدول التالي، والذي يتبع في تركيبته النظريات المختلفة المتضمنة لبناء فعل الحِجَاج.

في هذا الإطار، سنلاحظ، ومثلما أراد أرسطو، أن نظرية الحِجَاج، في قلب البلاغة، تتمايز بوضوح عن أي نظرية تأخذ في اعتبارها شروط إيجاد القضايا المدافع عنها.

(13) ما يسمى «في الفصاحة (De oratore)» (المترجم).
(14) مؤسسة الفصاحة (Institution oratoire) (المترجم).

المعايير التقليدية لبناء الخطاب البلاغي

مراحل تنفيذ خطاب الحِجَاج	أسئلة محددة	النظريات المستخدمة
الإبداع	ما القضية المدافع عنها؟ ما المسلمات التي ترتكز إليها ؟ ما الحجج التي يجب استخدامها للدفاع جيداً عنها؟	المسلمات (معرفة المتفق عليه والآراء المتعارف عليها) نظرية الاستدلال: • القياس المضمر • المثل
التنظيم	كيف يتم تركيب الحجج داخل الخطة العامة؟ ما التدرج الأفضل للحجج؟	نظرية الخطة: • الاستهلال • عرض الوقائع • النقاش • الختام
التعبير	ما الصور الأسلوبية الأكثر توافقاً؟ كيف يقوم الخطيب بتقديم نفسه؟ كيف يأخذ المتلقين في اعتباره؟	الأسلوب (الخطاب)[15] صورة الخطيب النصية مشاعر المتلقي
الاستظهار	كيف يقوم الخطيب بتفعيل ذاكرته؟ كيف يدخل في علاقة مع ذاكرة متلقية؟ كيف يستخدم الذاكرة الجماعية؟	منهج المسلمات
الفعل	أي ضرب من ضروب الخطاب؟ ما هي نوعية المتلقي؟ ما نوعية المواقف الخطابية؟	دور السياق في عملية تلقي الحجة ضروب الخطاب الثلاثة: • القضائي (المنصف والجائر) • الاستشاري (المفيد والضار) • الاستدلالي (السامي والوضيع)

إن البلاغة ليست منهجاً لإنتاج الأفكار أو الآراء، وإنما للدفاع عنها والإقناع بها. وبهذا المعنى، فإنها تعتبر نظرية لتشكيل الرأي باتجاه متلقٍ ما. فهي تختلف جذرياً عن الديالكتيك الأفلاطوني الذي هدفه البحث عن الحقيقة والحكمة. وبالتأكيد هذا الفصل بين الفكر وبين التعبير عنه، ينظر إليه الكتاب التقليديون (مثل شيشرون) على أنه ضار،

(15) إضافة كلمة «الخطاب» للتوضيح. (المترجم).

لكنه في ذات الوقت يطرح شروط الحوار المثمر بين الفلسفة والبلاغة، على الرغم من كل شيء. إن على البلاغي أن يكون فيلسوفاً أيضاً لكي يتفادى أن يصبح تقنياً خالصاً عرضة دائماً للاتهام بأنه لاأخلاقي.

4 - انحطاط الحِجَاج

إن أهمية نظرية الحِجَاج في داخل البلاغة تناقصت تدريجياً، وبصورة متناقضة، عندما زاد الاهتمام بالبلاغة لتصبح في النهاية محتوى لكل التعليم. وبتراجع تأثير البلاغة، في القرن التاسع عشر، حتى تم إقصاؤها من البرامج المدرسية، كانت النتيجة عدم ظهور أي نظرية في الحِجَاج لبعض الوقت.

لقد كانت حركة هذا التدهور للحِجَاج مزدوجة. فهي أولاً داخلية: إذ إن مرحلتي التنظيم والتعبير في داخل البلاغة صعدتا تدريجياً لمكان عال داخل مجال جديد هو التعبير الأدبي. ثم هي خارجية: إذ فقد الحِجَاج مكانه ليحل فيه البرهان العقلاني، خاصة مع ديكارت، وبالتالي حرمان البلاغة من ذلك الجزء الجوهري الذي تمثله نظرية الإبداع (théorie de l'invention).

في الواقع أنه منذ ظهور الإمبراطورية الرومانية، تراجع البعد الحِجَاجي، الذي كان إلى ذلك الوقت أساسياً، ليتقدم عليه البحث عن الصور الأسلوبية وتجميل النص فيحتل المكان الرئيس. وأصبحت البلاغة نظرية أدبية وفي الوقت ذاته مكاناً لانطلاق الأدب. وقد تنبه لهذه الظاهرة، بصورة مباشرة نوعاً ما، تاسيت (Tacite) في عام 81 بعد الميلاد، وذلك عندما لاحظ أن هناك «فترة طويلة من الهدوء في الأحداث، وفي تتابع أوقات الفراغ لدى الشعب، وفي دوام الهدوء في مجلس الشيوخ، خاصة إن حكومة أحد الأمراء قد جعلت من الفصاحة ممارسة مسالمة كبقية الممارسات» (1985: 69). عندها حدثت في بداية الحقبة الميلادية عملية «انصهار»، كما يقول بارت، للبلاغة وللشعر (اللذين فصل بينهما أرسطو). وهذا الانصهار، يقول عنه: «رئيس لكونه عماد فكرة الأدب ذاتها» (1970: 179). وهذا أكيد، إلا أنه تم في الوقت ذاته على حساب الجزء الخاص بالحِجَاج في البلاغة.

هذا الانصهار هو في جانب منه مرتبط بكون البلاغة، التي على الرغم من بقائها عنصراً جوهرياً للتكوين، قد اختزلت حتى لم تعد سوى أحد التمارين المدرسية. فمنذ شيشرون

ونهاية الجمهورية لم يعد هناك بحث فعلي عن إقناع جمهور من المتلقين لديه الحق في اتخاذ القرارات. فقد حدثت عملية نقل لسيادة المتلقين إلى الإمبراطور. وكما أشارت فرنسواز ديسبورد، التي سجلت بذلك تطوراً جوهرياً لنظرية الحِجَاج في داخل البلاغة، «فيم كان يفكر كانتليان، مثلاً، وهو المنتشي بخطيبه المثالي والفاتن للجماهير، حين يكتب أثناء حكم دوميتيان (Domitien)، الذي قام بإعدام أحد البلغاء وآخرين بسبب خطاب مدرسي ضد المستبدين؟» (1996: 44). هكذا بدأ الاهتمام بجمالية الخطاب أكثر من الاهتمام بالإقناع الفعلي فيه. وكان يجب الانتظار إلى القرن الثاني عشر، مثلا، لكي يعاد اكتشاف بلاغة أرسطو، في الكتابات التمهيدية لعصر النهضة (Dahan & Rosier-Catach 1998).

كان تنظيم المعارف، في العصور الوسطى، يتم من خلال فرعين منفصلين تماماً: الفنون الثلاثة (le trivium): النحو، والبلاغة، والمنطق، وذلك في مقابل العلوم البحتة الأربعة (le quadrivium): الموسيقى، وعلم الحساب، وعلم الهندسة، وعلم الفلك[16]. ففيما يخص الفنون الثلاثة، التي كانت تسيطر عليها البلاغة، فإنها وقعت سريعاً تحت سلطة المنطق. ومن الأجزاء الخمسة المؤسسة للبلاغة نجد أن الاستظهار والفعل تراجعا مع تراجع الخطيب، من جانب وتقدمت الكتابة من جانب آخر. وتراجع الإبداع تحت ضربات المنطق الذي أصبح شيئاً فشيئاً منطقاً صورياً. وبالتأكيد فإن البعد الحِجَاجي سوف ينبعث من جديد داخل عودة أكثر اتساعاً للبلاغة في عصر النهضة، كما بين ذلك بوضوح فومارولي (Fumaroli)، وذلك بقيام الإنسانيين (les humanistes) بإعادة اكتشاف بلاغة أرسطو، وتجديد كانتيليان، وتأسيس بلاغة شيشرون كتخصص أدبي لتأهيل الإنسان الأوروبي الشريف. وهي التربية التي نشرها اليسوعيون (Jésuites) في أوروبا وأمريكا اللاتينية. إنه «عصر الفصاحة» الذي «يجمع طاقات البلاغة العتيقة، التي تم إعادة اكتشافها بواسطة النهضة الإيطالية، وطاقات بلاغة (الآباء)، المعاد اكتشافها بواسطة الإصلاح الكاثوليكي، والتراث الروحي الرهباني للقرون الوسطى الذي أصبح ديموقراطياً لدى العلمانيين» (1994: 16)

إلا أن هذا الانفراج كان لفترة قصيرة جداً ليعود التركيز في البلاغة، مرة أخرى، على الجزء التجميلي (elocutio)، وذلك كفن «محسنات» للخطاب الأدبي. وقد ابتعدت كثيراً كتب البلاغة في العصر الكلاسيكي عن مجال الحِجَاج، ككتاب البلاغة للأب برنار لامي

---

(16) مجموع هذه الفنون كلها هو ما يسمى بالفنون السبعة (Septennium). (المترجم).

(Bernard Lamy 1675)، وكتب دومارسيه (Dumarsais 1730) وفونتانييه (1821، Fontanier 1827)، ولم تركز إلا على المحسنات والصور الأسلوبية. وهكذا تقدم فن القول على فن الإقناع. وفي القرن التاسع عشر، اشترك كل من تاريخ الأدب وتدريس العلوم في سلخ البلاغة وتفريغها من معناها الأول، لأكثر من مرة.

عندئذ لم يعد للحِجَاج وجود كنظرية ولا كممارسة، لا في الثانوية ولا في الجامعة. واختفى درس البلاغة من النظام المدرسي في فرنسا عام 1902، في الوقت ذاته الذي فرغت فيه البرامج من أي إحالة إلى البلاغة. وفي كويبك، ألغي درس البلاغة والمحاضرات التقليدية في عام 1968. ولكن محاضرات التواصل الخطابي، وما يسمى اليوم بالتفكير النقدي لم يتوقف أبداً في الولايات المتحدة.

إن هذا المجال، الذي فقد الاهتمام بقي مجدباً طوال القرن العشرين. إلا أن العودة إليه أتت في الخمسينات من خلال ما أسماه شايم بيرلمان «البلاغة الجديدة» بالتوازي مع المنحى الفكري للبحوث الأنجلوسكسونية، خاصة أعمال تولمن.

الباب الثاني:

النهضة، بيرلمان وتولمن

في عام 1958، وعن طريق الصدفة اللافتة للنظر، تم نشر الكتابين المؤسسين للعودة المعاصرة للاهتمام النظري بالحِجَاج، وهما: رسالة في الحِجَاج، البلاغة الجديدة لشاييم بيرلمان ولوسي أولبرشتس تيتيكا[17]، واستخدامات الحجة لستيفان تولمن[18].

تشترك نظريتا الحِجَاج عند بيرلمان وتولمن في أشياء أخرى مهمة بالتأكيد، كخلفيتهما الحقوقية، إلا أن اختلافاتهما؛ بل وتباعدهما، يبدو أكثر وضوحاً. وجزء مهم من هذا الاختلاف يعود إلى تباين تصورهما الأساسي للحِجَاج. ففي الوقت الذي طور فيه بيرلمان نظريته البلاغية ضد العقلانية (الديكارتية)، وذلك بمحاولة إعطاء قابلية الصواب قيمة في مواجهة ما هو لازم، وبتوضيح أهمية الآراء بمقارنتها بالوقائع، نجد أن نظرية الحِجَاج لدى تولمن تنخرط في معارضة لبعض أساليب المنطق (منذ أرسطو إلى كارناب)، مع الرغبة في إصلاحه بهدف جعله أكثر قابلية للتطبيق في مواقف الحياة اليومية وفي النقاش العقلاني. فالحجة عند بيرلمان تتعلق بعقلانية تختلف عن البرهان الرياضي، أما بالنسبة لتولمن فإنها أقرب لأن تكون نوعاً من الاستدلال أكثر عمومية وتعقيداً من القياس المؤلف.

1. البلاغة الجديدة لبيرلمان

إن عودة الاهتمام الحالي بالبلاغة تدين بالكثير إلى كتابات الفيلسوف والقانوني البلجيكي، الأستاذ في جامعة بروكسل، شاييم بيرلمان (1912-1984)، الذي نشر في عام 1958 ثم في عام 1970، بمشاركة لوسي أولبيرشتس تيتيكا كتاب «رسالة في الحِجَاج» والذي أعيد نشره وترجمته أكثر من مرة. ترتبط «البلاغة الجديدة» (العنوان الفرعي للكتاب) بالتقليد البلاغي الأرسطي وتقوم بتحديثه. هذه البلاغة الجديدة تدخل في عملية قطيعة مع المنطق البرهاني وفلسفة الوضوح على الطريقة الديكارتية، وذلك لفتح المجال

(17) شاييم بيرلمان (Chaim Perleman)، ولوسي أولبريتشت تيتيكا (Lucie Olbrechts-Tyteca)، رسالة في الحِجَاج، البلاغة الجديدة (Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique)، 1958. (المترجم).

(18) استيفان تولمن (Stephen Toulmin). استخدامات الحجاج (The Uses of Argument) 1958. (المترجم).

أمام منطق حجاجي غير رياضي. وعليه يعرف بيرلمان الحِجَاج بأنه دراسة «التقنيات الخطابية التي تسمح بإثارة الأذهان، أو زيادة تعلقها بالأطروحات التي تعرض من أجل أن تقبلها». وقد تركت أعماله أثراً كبيراً في الكثير من البحوث الحالية في مجال الحِجَاج، والتي تجسد اتجاهاً مهماً جعل البعض مثل لامبرور(Lempereur 1999) يتحدث عن «مدرسة بروكسل».

أساسيات البلاغة الجديدة

ببحثه عن «منطق» للقيم (valeurs)، وجد بيرلمان في طريقه البلاغة القديمة، بلاغة أرسطو وبلاغيي العصور القديمة، التي وضعها في موقف معارض للبلاغة الكلاسيكية التي تطورت في القرن السابع عشر وتقلصت لتصبح، كما يقول، بلاغة الصور الأسلوبية الهادفة للإعجاب وتحريك العواطف. وكانت دراسات البلاغة العامة، التي كتب فيها بارت وجانيت (Genette) وباحثون معهما، عنده تنتمي لهذه البلاغة الكلاسيكية أكثر من انتمائها للبلاغة القديمة. إذ تهتم الأولى بالأسلوب وجماليات الخطاب فيما تهتم الثانية بالوظيفة الإقناعية فيه.

إن البلاغة الجديدة تختلف عن أي نظرية بلاغية غير حِجَاجية، كما أنها تختلف مع التراث الديكارتي الذي لا يرى العقلانية إلا في البرهان المنطقي. لقد حاول بيرلمان أن يستعيد، بطريقته الخاصة، المحاولة التي شرع فيها أرسطو، الذي كان يبحث عن تحديد قواعد بناء المعرفة المشتركة. وقد اعتمد بيرلمان في عمله هذا على البلاغة التي جدد فيها تصنيف الحجج.

• الانتماء للنظرية الأرسطية

يندرج عمل بيرلمان بالكامل في الإرث الأروسطي. فنقطة انطلاق البلاغة الجديدة، وذلك مثل القديمة، هو التمييز الذي أقامه أرسطو بين الاستدلال التحليلي والاستدلال الديالكتيكي. الأول مرتبط بـ«الصواب» والمنطق. أما الثاني فينطلق من المقدمات التي تتشكل من «الآراء المقبولة عموماً» والقابلة للصواب، وذلك بهدف استنباط أو قبول أطروحات أخرى. إنها هذه الجدلية التي يريد بيرلمان توسيعها وتجديدها. وكان ذلك، مثلما فعل أرسطو، بالبحث عن قواعد تعادل، في هذا المجال، القواعد المقبولة في الاستدلال التحليلي. ولكن بخلاف أرسطو،

ربما، كان بيرلمان يتمنى أن يعطي للعقلانية الحِجَاجية وضعاً إبستيمولوجياً قوياً وتاماً، بعيداً عن تصورها البسيط والخاطئ من أنها عقلانية وقتية في لحظة انتظار العلم.

إن البلاغة الجديدة، بالنسبة لبيرلمان، تتوجه لكل أنواع المتلقين؛ بل وتتعلق حتى بالحالة الخاصة التي يتشاور فيها الإنسان مع نفسه. ولا يكون الحِجَاج دقيقاً أبداً، وفقاً لبيرلمان، إلا إذا توجه إلى «متلق عام». أما موضوعه فهو «دراسة الخطاب غير البرهاني»، وبالتالي فهو يغطي كل حقل «الخطاب الهادف إلى الإفحام أو الإقناع». هذه البلاغة يمكن أن تكملها «منهجيات متخصصة تتناسب مع نوع المتلقي ونوع المادة المطروحة». هكذا نرى أن بيرلمان كان يفكر في الحِجَاج القضائي أو الحِجَاج الفلسفي «الذي لا يمكن أن يكون إلا تطبيقات محددة للبلاغة الجديدة في القانون وفي الفلسفة» (1988: 19). لا يوجد ما يفاجئ عندما لا يهتم بيرلمان، هنا، من البلاغة القديمة إلا بالجزء الخاص بالاكتشاف[19]، وأن يتجاهل بجَرّةِ قلم – لم يستطع فعل ذلك بسهولة حتى في صلب بحثه ذاته– كل ما يتعلق بالتجميل (L'elcutio)، وأكثر من ذلك بالحدث (actio)، والتذكر (memoria). وحتى عندما يهتم بالبناء (dispositio)، فإنه لا يلقي بالاً إلا لقيمة طريقة عرض الحجج ذاتها في الحِجَاج. بهذا المعنى فهو يربط البناء ومسألة الخطة بنظرية الاكتشاف. لقد كان همه، كما يخبرنا هو، «ذلك الخاص برجل المنطق الراغب في فهم آلية الفكر، ولم يكن هم معلم الفصاحة الراغب في تأهيل ممارسين».

على الرغم من هذه النظرة الضيقة فيما يخص البلاغة، والطموحة في ذات الوقت فيما يتعلق بالجدل، فإن نظريته في الحِجَاج تضع هذه الإشكالية بوضوح في بعد تواصلي. وهي ذاتها التي كانت مركز اهتمام البلاغيين القدماء، الذين كانوا لا يفصلون نهائياً بين مسألة تشكل الأفكار ومسألة انتقالها. والسبب في ذلك كما يقول بيرلمان، إن «هدف الحِجَاج ليس استنباط نتائج لبعض المقدمات، وإنما إثارة وزيادة قبول المتلقي للأطروحات المقدمة ليقبل بها» (1988: 23).

---

(19) على الرغم من أن الكلمة الإغريقية هي inventio ويمكن ترجمتها إلى الفرنسية بكلمة invention أي الإبداع والخلق، إلا أننا نتفق مع روبريو (Robrieux) عندما يتحدث عن وجوب ترجمتها بالاكتشاف حيث إن «الأمر لا يتعلق فعلاً بالخلق وإنما بإيجاد الحجج التي تكون موجودة باستقلالية عن الخطيب» (1993: 17). فكثير من الحجج التي يقدمها الخطيب تكون في الغالب سابقة لوجوده، وبالتالي فإنه يحاول اكتشافها وتوظيفها لغاياته الحِجَاجية. (المترجم).

• القطيعة مع ديكارت

تبين السطور الأولى، من كتاب «رسالة في الحِجَاج»، بجلاء، القطيعة التي يحاول بيرلمان تحقيقها مع «تصور العقل والاستدلال عند ديكارت»، والذي «بجعله من الوضوح دليل العقل، لم يعد يعتبر العقلانية إلا في البرهان الذي ينطلق من أفكار جلية ومغايرة لينشر [...] وضوح المسلمات المقررة (axiomes) على كل القضايا المطلوب إثباتها» (2:1970).

يرفض بيرلمان من البداية الخيار غير الصائب الذي يحيل ما يمكن إحصاؤه إلى العقل البرهاني (la raison démonstrative)، وما لا يمكن إحصاؤه، أي كل ما ينبع من القيم ومما يحتمل الصواب، إلى «القوة غير العقلانية، وإلى غرائزنا، وإلى الإيحاء، أو إلى القهر»؛ لهذا، فإنه يفتح، أو يعيد فتح، نموذج، منطلقاً من المبدأ البسيط والجذري القائل: «إن فكرة الوضوح، التي تعتبر صفة للعقل، هي التي يجب مناقشتها، إذا أردنا أن نقيم مكاناً لنظرية الحِجَاج تقر استخدام العقل من أجل التحكم في فعلنا، ومن أجل ممارسة التأثير على أفعال الآخرين» (1970: 4). بهذا فإن طموح بيرلمان، وكل أولئك الذين سيتبعونه في ذات الطريق، خاصة ميشل ماير (M. Meyer) في بروكسل، هو إظهار وبناء المبادئ لعقلانية تتعلق بالأمور الإنسانية التي لا تنتمي للوضوح البرهاني، الذي لا يتناسب كثيراً معها، ولا لعدم عقلانية اللجوء إلى العواطف.

مسألة الاتفاق المسبق

يمكن أن نلاحظ الاهتمام الدائم الذي يوليه بيرلمان لقضية المتلقي، من دون أن يعطي الانطباع برغبته بذلك. فهو عنده مصدر أو مستقبل للرأي في داخل هذه الدائرة المتميزة التي تنشئها البلاغة عند توقفها عن البحث عن أصل الأفكار فيما وراء الواقع المحسوس، والذي سيكون غالباً شيئاً داخلياً كما النفس عند أفلاطون، على سبيل المثال، لكن بإعادة الأهلية لعملية التواصل ودورها في إنتاج المعرفة والرأي.

• مسألة تلقي الحجة

يطرح بيرلمان مسألة المتلقي على مستويين: الأول هو احتمالية فعل الحِجَاج ذاته، فيقول مؤكداً: «لكي يحدث حجاج، يجب أن تتحقق في لحظة معينة مجموعة من العقول. ويجب أن

نكون متفقين قبل أي شيء، ومن حيث المبدأ، على تشكّل هذه المجموعة المستنيرة، ثم بعد ذلك على عملية المناقشة الجماعية لمسألة بعينها: والواقع، أن هذا ليس من البدهيات» (1970: 18). وبعد ذلك يضع مسألة المتلقي على مستوى آخر، هو «بناؤه من قبل الخطيب». وهنا يتقاطع بيرلمان مع إحدى القضايا الأساسية في البلاغة القديمة التي يمكن، بهذا المنحى، أن تتلاقى مع بعض الإشكاليات في النظريات الحالية للتلقي والتي اشتهرت في أوساط علوم التواصل.

إن همه بسيط وجوهري: «إن معرفة أولئك الذين ننوي إقناعهم شرط مسبق لأي حجاج فعال» (1970: 26). بمعنى آخر، يجب على المرسل أن يتوقع كيفية تلقي رسالته الإقناعية، وأن يدمج هذا التوقع في تصور الرسالة ذاتها. وهذا موقف اكتشفه أرسطو مسبقاً، وذلك بقوله إننا لا نحاجج إلا انطلاقاً من آراء مقررة سلفاً. إذن يضع بيرلمان نفسه في وسط الإطار النظري للاكتشاف (l'invention). ولكن مع إدماج مسألة تلقي الآراء بصورة جذرية فيه. ومن هذا الحضور للتلقي، في مقدمة فعل الحِجَاج، استطاع أن يستنبط أن «الثقافة الشخصية لكل متلقٍ تظهر عبر الخطابات الموجهة إليه، وذلك بطريقة تبين أن من هذه الخطابات نفسها، وإلى حد كبير، نعتقد أن لنا الحق في استنباط بعض المعلومات المتعلقة بالحضارات البائدة» (1970: 26)، وبإمكاننا أن نضيف، والمتعلقة بحضاراتنا كذلك.

إلا أن بيرلمان يذهب بعيداً في تفكيره حول تلقي الحجة عندما يدافع عن أننا «لا نستطيع أن نقرر سلفاً ما إذا كانت بنية محددة يجب اعتبارها صورة (figure) أم لا، وما إذا كانت تؤدي دور الصورة الحِجَاجية أو الصورة البلاغية. إن أكثر ما نستطيع فعله هو أن نكتشف مجموعة من البنى القادرة على أن تصبح صورة [...]، فما يحدد ضرب الخطاب الذي نتعامل معه هو حركة الخطاب وتقبّل المتلقي لشكل الحِجَاج الذي يفضله» (1970: 229). هذا الموقف أكثر راديكالية مما يظهر، حيث إنه يتعارض مع الأهمية الكبيرة المعطاة للتصنيف المسبق للحجج، وهو ما يفعله بيرلمان. إلا أنه سريعاً ما يعطي الحجج روحاً وحيوية لم يعطها إياهما أي تصنيف آخر حتى ذلك الحين.

• نظرية الحجة عند بيرلمان

بعد أن عرّف الحِجَاج على أنه مجموعة «التقنيات الخطابية التي تسمح بإثارة أو زيادة موافقة الأذهان مع الأطروحات التي تُعرض عليها بهدف تقبلها» (1970: 5)، اقترح بيرلمان

سلسلة من التعريفات لماهية الحجة، وهي نقطة جوهرية لكل نظرية في هذا المجال. الحجة بالنسبة له هي صورة خطابية (figure du discours)، «يمكن تمييز شكلها بواسطة بنية خاصة بها [...]. إن صورة ما تكون حِجَاجية إذا كان استخدامها، الذي يحدث تغييراً في المنظور، يظهر عادياً بالنسبة للوضع الجديد المقترح. وعلى العكس، إذا لم تؤد الصورة إلى موافقة المتلقي؛ فإنها تكون حينئذ تجميلاً، أي صورة أسلوبية فقط» (1988: 53). ونلاحظ هنا تمييزاً جوهرياً لدى بيرلمان بين التشّكل المحدد الذي يستخدم للإقناع، وذلك الذي يستخدم لتجميل الخطاب: «إذا لم تندمج الصور في داخل بلاغة ينظر إليها كفن للإقناع والإفحام؛ فإنها لا تعد صور بلاغية، وتصبح محسنات تهتم فقط بشكل الخطاب» (1988: 53).

إن الحِجَاج هو بالتأكيد وضع في شكل ما، وتقديم قضية أو رأي بطريقة معينة. وبذا فإن بيرلمان يقترح تمييزاً بين الشكل والمحتوى. لكن، نجده، في إحدى الفقرات من كتاب «رسالة في الحِجَاج»، يقول ما يثير الاستغراب:«إن الصور تأخذ معناها الحِجَاجي الكامل عندما يزول هذا التمييز، الملاحظ للوهلة الأولى، بفضل تأثير الخطاب ذاته» (1970: 228). إنه يفترض، من دون أن يطور هذه الفكرة، التي قد تكون مفصلية، أن تلقي حجة ما يتم على مرحلتين: أولاً، إدراك واضح بأن العبارة التي تم تلقيها هي حجة، أي صورة تمثل انحيازاً خاص عن اللغة؛ ثانياً، زوال هذا الإدراك المبدئي في التمييز بين المحتوى والشكل. وهنا يصف بيرلمان ظاهرة متكررة وعادية تجعلنا نخلط دائماً في العبارة الواحدة بين الفرضية التي تقدمها والدليل الذي تعرضه. إن الاستخدام العادي للمصطلح «حجة» يعني، ربما دائماً، محتوى محدداً وفي ذات الوقت تشكّله، أي التعبير عنه. وما يجب على التحليل البلاغي فعله هو فك هذا الخلط، وذلك لمحاولة إيجاد البنية، التي تصبح غير مرئية أثناء حركة العبارة، خلف محتواها الظرفي الهادف للإقناع.

إن البلاغة الجديدة تتمحور أساساً حول تحليل «تقنيات الحِجَاج». وهذه التقنيات يتم بسطها على محورين كبيرين: من جهة، محور الخطاب ذاته، خاصة بنيات الحِجَاج الموضوعة موضع التنفيذ، ومن جهة أخرى، محور تأثير هذا الخطاب على المتلقي، وذلك في علاقته بقصدية منتج الخطاب. ففي الحالة الأولى تجري دراسة الحجج وتصنيفها، وفي الحالة الثانية تتم دراسة الموقف التواصلي الذي يمثل حدث الحِجَاج (acte d'argumenter). ولقد نبه بيرلمان جيداً إلى «المخاطرة» التي يمكن أن يمر بها التحليل عند عزل «حلقة من الحِجَاج خارج السياق، وبعيداً عن الموقف الذي ترتبط به» (1970: 25).

انطلاقاً من هذه النقطة قام بيرلمان بالتمييز بين أربع تقنيات كبيرة في الحِجَاج. الأولى، وبالتوافق مع تقليد القياس المضمر عند أرسطو، يسميها بالحجج «شبه المنطقية» (quasi logique) وهي، كما يشير إلى ذلك اسمها، مبنية على نموذج من الاستدلال المنطقي أو الرياضي. والاثنتان التاليتان هما: «تقنيات الربط»، والتي تقرّب العناصر المتباعدة، سواء كان الربط موجوداً سلفاً في الواقع أو تم خلقه من كل المكونات من أجل مناسبة اللحظة، كما يحدث في المماثلة. والتقنية الرابعة تنتمي «لتقنيات الفصل»، وهي التي تفصل وتباعد بين العناصر المعتبرة، مبدئياً، ككتلة واحدة. هنا سوف ندرس هذه التقنيات الأربع في الحِجَاج بالتتابع.

الربط			الفصل
الحجج شبه المنطقية	الحجج القائمة على بنية الواقع	الحجج المؤسسة لبنية الواقع	فصل المصطلحات
التنافر	روابط التتابع	المثال	الفصل
الهوية	روابط التعايش	النموذج	
التعريف		المماثلة	
قواعد العدل		التوضيح	
التعدية		الكناية	
المقارنة			

الحجج شبه المنطقية

إن المثال الأكثر بيانا للحجة شبه المنطقية، عند بيرلمان، هو المقولة المشهورة «أصدقاء أصدقائي هم أصدقائي». هذه الحجة لها صلة واضحة بالتعدية (transitivité)، التي تقول بأنه إذا كان (أ) يتضمن (ب) وكانت (ب) تتضمن (ج)، فعندها يكون (أ) متضمنا (ج). من المجموعات الأربع للحجج تعتبر هذه الأكثر قرباً للبرهان والاستدلال الصوري، لكنها تختلف عنها بصورة واضحة في كونها غير «ملزمة» (contraignant)، في حين أن الاستدلال المنطقي ملزم قطعياً «ذلك أنها تنتج من عملية تبسيط غير ممكنة إلا في ظروف محددة، داخل نظام معزول ومحدد» (1970: 260). ويبقى من الممكن أن يتحول الحِجَاج إلى برهان، لكن في هذه الحالة، كما يضيف بيرلمان، «يجب تحديد المصطلحات المستخدمة،

وإزالة أي غموض، واستبعاد أي تعدد لتأويل الاستدلال» (1988: 69). هذا التقارب بين البرهان والحِجَاج هو ما يعطي الحجة شبه المنطقية قوتها الإقناعية، إذ إن البرهان عبارة عن استدلال غير قابل للنقض. وهو أيضاً نقطة ضعفه، ذلك إنه بالإمكان القول بأننا هنا لسنا في مضمار برهاني. هكذا فكل أصدقاء أصدقائي ليسوا بالضرورة، وبلا جدال، أصدقائي.

ويوضح بيرلمان كذلك أن «في العصور القديمة، عندما كان العلم ذو الطابع الرياضي أقل تطوراً؛ كان استخدام الحجج شبه المنطقية شائعاً» (1988: 69). لذلك أعطاها أرسطو مكاناً مميزاً، وذلك في شكل القياس المضمر. والواقع أنها لا تزال تستخدم، وبعضها نقابله كثيراً. وللتعرف عليها وتحليلها ينصح كاتب «البلاغة الجديدة» بالبحث عما يقابلها في المعادل المنطقي.

• **التعارض والتنافر (Contradiction et incompatibilité)**

إن مبدأ عدم التعارض، الضروري لأي بناء منطقي، يجد ترجمته، في اللغة الطبيعية التي نستخدمها للحِجَاج، في مبدأ «عدم التنافر». لذلك نجد أن بيرلمان في كتاب «رسالة في الحِجَاج» يذكر لوك (Lock) الذي هاجم المحققين قائلاً «سيكون من الصعب إقناع العقلاء من الناس بأن من يقدم أخاه، بضمير مرتاح ودون أن يهتز له جفن، إلى من سيحرقه حياً، سيكون صادقاً ومهموماً بإنقاذ هذا الأخ من عذاب يوم القيامة» (ورد في بيرلمان، 1970 : 273). التنافر هنا واضح ويبقى قابلا للنقاش.

• **الهوية والتعريف (Identité et définition)**

يمثل التعريف عند بيرلمان حجة، «وكونه يوجه الاستدلال يجب إذن تبريره». وفي داخل نظام صوري رياضي، يسمى هذا المبدأ بمبدأ الهوية بين المعرف والمعرَف. وفي الحِجَاج يكون التعريف إما معيارياً أو وصفياً (أو خليطاً من الاثنين). واستخدام التعريفات في الحِجَاج يفترض احتمالية تعددها، والاختيار من بين هذه التعددية.

• **قاعدة العدل والتبادلية (La règle de justice et de réciprocité)**

يعطي المنطق الصوري مكاناً مهماً لمبدأ التماثل. والتعبير عن هذا المبدأ، في حقل الحِجَاج، يحيل إلى القاعدة التي تقول «إن الكائنات المنتمية لصنف أساسي واحد يجب أن يتم معاملتها بطريقة واحدة» (1988: 81). هكذا نجد المثال الذي تقدمه أولبريشتس تيتيكا (Olbrechts-Tyteca) عن ذلك المتشرد، الذي لا يستطيع أن يفهم «كيف يمكن أن

يكون التسول جنحة في مجتمع يجعل من الصدقة فضيلة» (1988: 83)، أو تعبير كانتيليان: «الذي يشرف تعلمه يشرف تعليمه» (1980، جزء 5، الفصل 10، الفقرة 78). بالتأكيد إن قاعدة العدل والتبادلية ليس لها ذات الخاصية الملزمة التي نجدها في المبدأ الصوري للمماثلة، ولكن، كما نرى، فهو يأخذ قوته الإقناعية من هذا المبدأ ذاته.

• **التعدية، الاشتمال (La transitivité, l'inclusion)**

إن السمات الصورية للتعدية والاشتمال قابلة للنقل إلى حقل الحِجَاج. وعبارة مثل: «أصدقاء أصدقائي هم أصدقائي» يمكن أن تعاد صياغتها وفق مبدأ شبه رياضي: «أعداء أصدقائي هم أعدائي»، «أعداء أعدائي هم أصدقائي» إلخ، وذلك إلى أن تقوم الاستثناءات الناتجة من السياق بعملية استرجاع للخاصية غير الملزمة للصيغة.

• **المقارنة (La comparaison)**

يقول لنا بيرلمان عن المقارنة إنها «تعتبر حجة شبه منطقية عندما لا ينتج عنها فكرة أو قياس فعلي»، ولكن عندما يكون تأثيرها الإقناعي متشكلاً «من الفكرة الضمنية التي نستطيع عند اللزوم دعم حكمها من خلال عملية تحكم». الأمر يتعلق إذاً، بمقارنة فعلية، كلمة بكلمة، وليس بداية قياس أو مثال بسيط. ولذلك يؤكد شيشرون: «إن الجريمة هي ذاتها، سواء كانت سرقة الدولة أو توزيع هبات مضادة للنظام العام» (1922، الكتاب 2، جزء 172). في هذه الحالة تقترب المقارنة من البحث عن الهوية، وهي صفة تتميز بها الحجة شبه المنطقية.

الحجج القائمة على بنية الواقع

في الوقت الذي تتطلب الحجة شبة المنطقية بعض العقلانية (شبة العقلانية)؛ فإن الحجة التي يسميها بيرلمان «بالقائمة على بنية الواقع»، تقتضي ترابطاً بين عناصر الواقع الذي يرتكز إليه من أجل الحِجَاج. فاستخدام هذه الحجة يعني إذاً التوضيح بصورة جلية للرابط بين القضية التي يتم الدفاع عنها، وعنصراً مقبولاً سلفاً لدى المتلقي. هذا الرابط يجب أن يكون معطى مسبقاً، ولا يتم خلقه وإيجاده عند الحاجة، مثلما هو الحال في المماثلة، (في هذه الحالة يتحدث بيرلمان عن الحجج التي «تؤسس بنية الواقع»).

المثال الذي يقدمه بيرلمان هنا لبوسويه (Bossuet)، الذي كان يريد إقناع متلقيه بأهمية حديث الدعاة. حاول بوسويه أن يوضح العلاقة القائمة بين هذا الحديث، الذي يلقى من على المنبر، والقربان المقدم على المذبح. تظهر الحجة هنا من المحاولة في تحويل الاتفاق على أهمية المذبح إلى اتفاق على أهمية المنبر: «إن هيكل الرب، أيها المسيحيون، له مكانان مهيبان وجليلان، وأعني بذلك المذبح والمنبر (...). يوجد رابط وثيق بين هذين المكانين المقدسين (...)، وبسبب هذا الرابط الرائع، بين المنبر والمذبح، لم يخش بعض العلماء القدامى دعوة المؤمنين إلى التقرب منهما بذات القدر من الإجلال» (مذكور في بيرلمان، 1970: 351). ونجد أن بيرلمان قد ميز بين صنفين كبيرين من الحجج القائمة على بنية الواقع وفقاً للرابط، حيث يمكن أن يكون هذا الرابط رابط تتابع؛ مثل العلاقة بين السبب والنتيجة، أو رابط تعايش؛ كالحجة بالصلاحية.

• **روابط التتابع** (Les liaisons de succession)

يسمح استخدام الرابط السببي ببناء حجة مستندة تماماً إلى تعاضد في بنية الواقع. إننا نستطيع أن ندافع بالقول: «إن هذه الدائرة الاستخباراتية جيدة» ذلك أن «الجيش الذي تنتمي إليه قد انتصر في جميع المعارك». توجد في هذه الحالة علاقة بين سبب ونتيجة قابلة للتصديق بسهولة؛ لكنها تبقى أيضاً قابلة للنقاش: فالجيش يمكن أن يكسب معاركه لأسباب كثيرة أخرى (وأحياناً من دون دور لدائرته الاستخباراتية).

هناك أنواع أخرى من الروابط يمكن استخدامها في الحِجَاج، مثل العلاقة بين الوسائل والغايات (في هذه الحالة تعتمد قيمة أي عنصر على الغاية التي هو وسيلتها). وهناك الحجة المسماة «الإسراف»، التي تعتمد على علاقة معترف بها مثال ذلك: «يجب مواصلة الحرب حتى لا يضيع دم الأموات هدراً»، وهناك الحجة المسماة بـ«التوجيهية» (وتعرف أكثر بالميل المائع)، التي تقول مثلاً بمعارضة أي زيادة في عدد كتاب المحكمة، حيث يمكن أن يؤدي ذلك إلى المطالبة بزيادة كل الوظائف الأخرى.

إحدى حجج الروابط التي استحوذت على انتباه بيرلمان، وهي الحجة النفعية (argument pragmatique)، تربط قيمة السبب بقيمة نتائجه: «هذه السياسة جيدة؛ لأن نتائجها المتوقعة جيدة». وفي هذه الحالة يتعلق الأمر، كما يقول مؤلف «رسالة في الحِجَاج» بالانتقال «من قيمة مرتبطة بالثمرة إلى قيمة مرتبطة بالشجرة» (1970: 360).

ومثل هذه الحجة تبقى في نطاق القابل للنقاش، ذلك أنها لا تعمل إلا عن طريق «التقليل من أهمية الأسباب الثانوية» (1970: 362)، التي قد تؤدي دوراً في الميزة الإيجابية للنتائج. وهكذا، فقوة العملة الفرنسية الفرنك، مثلاً، ربما تعتمد على عوامل أخرى غير السياسة النقدية للحكومة، التي تستفيد بالكامل من هذه النتيجة.

وتتجه الحجة النفعية، التي لها مشروعيتها الكاملة في الحِجَاج، إلى أن تصبح مركزية في النسق الذهني القائم على الأداتية (Utilitariste)، ولذلك يكتب عنها بيرلمان أنها: «تتعرض للنقد من أصحاب التصورات المطلقة، أو القطعية، للقيم، خاصة الأخلاقية» (1970: 362). إن قيمة سياسة ما تعتمد، كذلك، على توافقها مع بعض القيم الجوهرية في داخل علاقة من التتابع أخرى.

• **روابط التعايش (Les Liaisons de coexistence)**

في الوقت الذي نجد فيه روابط التتابع تختص بالحقائق ذات الطبيعة الواحدة، والموجودة على ذات المستوى، نجد أن روابط التعايش تتضمن رابطاً بين «حقائق تنتمي لمستويات غير متساوية (...)، مثل العلاقة بين الشخص وأفعاله، أو أحكامه، أو أعماله» (1988: 103).

وتعتبر الحجة بالصلاحية (argument d'autorité) النموذج الأساس لرابط التعايش، ذلك أن رأياً ما سيصبح له قيمته بسبب دعم صلاحية ما له، وهي صلاحية يقبلها المتلقي كما هي. هذه الحجة، المستخدمة كثيراً، كانت في الماضي هدفاً للنقد، خاصة من قبل العلميين (sci-entifiques). وقد حل بيرلمان الإشكال بتأكيده، في داخل تصوره للبلاغة، بقوله: «من البدهي أنه لا يمكن لأي صلاحية إعطاء قيمة مضادة لحقيقة قابلة للبرهان (...)، لكن في الوقت ذاته لا ينطبق ذلك على الآراء أو أحكام القيمة» (1988: 108)، التي تمثل مادة الحِجَاج. والواقع أن أصول الصلاحية متعددة، فمن الممكن أن تكون عبارة عن قدرة ما، وقد تكون أيضاً من التراث، أو مما هو عام. إلا أن الأهم يبقى في أن الصلاحية، في ذاتها، واحدة عند المتلقي. وهناك حجج أخرى، يمكن أن نجدها في روابط التعايش، مثل الحجة بالسبب الأقوى (a for-tiori) «يقول ليبينيز: إن الإله الذي تكفل بالكسالى لن يهمل مخلوقاته العقلانية، والتي هي عزيزة لأقصى حد لديه» (ذكره بيرلمان، 1988: 115).

وفي الحالتين، سواء رابط التتابع أو رابط التعايش، تبقى الأهمية هي التأكد من أن المتلقي يقبل فعلياً المنطلق الذي يرتكز إليه الحِجَاج، وذلك «لكي يتم الانتقال مما هو متفق عليه إلى ما يراد القبول به».

الحجج المؤسسة لبنية الواقع

قام بيرلمان بعد ذلك بتحليل نوع من الحجج يتم فيه خلق الروابط وتشكيلها «التي تؤسس لبنية الواقع»؛ كالمثل والمماثلة. فنحن هنا أمام حال يقدم الحِجَاج فيه رابطاً غير مباشر بين عناصر من الواقع، وهذا يعني أن هذا الرابط ليس معطى مسبقاً، وإنما تعود إلى الخطيب المجازفة بتأسيسه، وتقديمه في علاقة ملائمة. كما أنه هو الذي يتحمل مسؤولية فشل هذا الرابط عندما لا تتضح ملاءمته، أي أنه لم يكن رابطاً مقنعاً، أو أن المتلقي لا يقبل أن تتأسس هذه العلاقة. وبالتوافق مع إصرار بيرلمان على «الاتفاق المسبق»، فإن الرابط يعتبر جسراً بين العناصر التي يقبلها المتلقي والرأي المقترح؛ لذا فإنه يعيد بناء الأساسات الكاملة للواقع بإظهاره لعلاقات لم نكن نراها بالضرورة، وبهذا المعنى يتم وصفها «كمؤسسة لبنية الواقع»، في مقابل أنواع الحجج السابقة التي ترتكز دفعة واحدة إلى واقع معترف به كما هو. في هذه الحالة، نستطيع أيضاً تفسير الرؤية التي يقترحها بيرلمان للحِجَاج كحدث يهدف إلى الإقناع، وكذلك كحدث يهدف إلى إنتاج معارف عن الواقع، وهي معارف قد تكون غير متوقعة نهائياً في حالتي المماثلة والكناية.

ويفرق بيرلمان بين نوعين من الروابط التي تؤسس الواقع: فمن جهة، هناك استدعاء «الحالة الخاصة» (كالمثل، والتبيين، والنموذج)، ومن جهة أخرى، هناك «الاستدلال بالمماثلة» (المماثلة والكناية). ولقد ميز وقدم وصفاً واضحاً لهذه الحالات الخمس من الحجج.

• **المثل (l'exemple)**

الحِجَاج بالمثل معروف جيداً، ومع ذلك أصر بيرلمان على أن المثل المستخدم لدعم قضية ما يجب أن «يتمتع (في أعين المتلقي) بكونه حدثاً (statut de fait)، على الأقل مؤقتاً» (1970: 475)، وهذا يعني أنه في حال كان المثل المستخدم لا يدخل في إطار المتفق عليه مسبقاً، فإن آلية الحِجَاج هنا قد تصبح من دون تأثير، كما أن حجة المثل لا يمكن أن تؤدي أي دور إلا إذا قامت على رفض هو أيضاً مسبق، لفكرة أن «كل ما يطرح ليس له شبيه»

(119:1988). إنه يتضمن أن يكون عند المتلقي رؤية للعالم ترفض أن يكون كل عنصر من العناصر فريداً في نوعه، وأنه لا يمكن أن يكون بين عنصرين منها أي علاقة.

بالنسبة لبيرلمان، مثله في ذلك مثل أرسطو، تعتبر حجة المثل استدلالاً، وللدقة يمكن القول إنه استدلال استقرائي (raisonnement par induction)، يقول أرسطو: «المثل شبيه بالاستقراء، والاستقراء مبدأ استدلالي» (البلاغة، الكتاب 2، 1393a) . فهنا ننطلق من حالة خاصة، يقبلها المتلقي، لننتقل بعد ذلك، إما من خلال التعميم، إلى قاعدة عامة تحتوي الرأي المدافع عنه، أو من خلال الانتقال المباشر من الحالة الخاصة إلى الرأي المدافع عنه (حجاج «من خاص إلى خاص»). ويستخدم بيرلمان المثال الذي أورده أرسطو، من أجل الإقناع بأهمية أن يكون لليونان تجهيزات عسكرية ضد الملك أرتاكسيركسيس الثالث أوكس (Artaxerxes 3 Ochos) الذي يتجهز لغزو مصر. يذكر أرسطو «أن داريوس (Darius) لم يتمكن من اجتياز أوروبا قبل الاستيلاء على مصر. وعندما استولى عليها عبر إلى أوروبا، وبعد ذلك عندما سيطر عليها إكزيركسيس (Xerxès)، مرَّ إلى أوروبا. وبذات الطريقة، فإن الأمير الذي يريد الاستيلاء على مصر سوف يمر إلى أوروبا؛ ولهذا يجب منعه من القيام بذلك» (البلاغة، الكتاب 2، 1393a). إن التمييز بين هذه الأنواع من حجة المثل تتعلق عند بيرلمان، بالسمة الضمنية، أو الصريحة للقاعدة العامة التي نتوصل إليها بفضل الاستقراء.

وتتمثل فعالية الاستقراء عند بيرلمان في حالة «القصور الذاتي» التي نجد أنفسنا فيها عندما نبحث عما هو منتظم في الواقع. هذا القصور هو الشيء الذي يمكن للمتلقي المهتم بالتفنيد أن يعارضه. كما يستطيع إيجاد «أمثلة معاكسة» تلغي صلاحية القاعدة العامة، وهي حجج تجبر على «التخلي، أو على الأقل تعديل، القاعدة» (120:1988).

تجدر الإشارة إلى أن بيرلمان لا يتبنى التمييز الذي اقترحه أرسطو بين الأمثلة التي ترتكز إلى أحداث سابقة والأمثلة التي «يتم اختراعها» مثل الحكم (Paraboles) والأساطير والحكايات (Fables).

- **التبيين (L'illustration)**

كيف يمكن التمييز بين التبيين والمثل عندما يتعلق الأمر بحالة خاصة في الحِجَاج؟ يقول بيرلمان: إنه يجب طرح السؤال حول ما إذا كانت الحجة تهدف إلى تأسيس قاعدة من خلال

الاستقراء، أو «تهدف إلى إعطائها وجوداً» في الوعي (121:1988). في الواقع إن التبيين لا يتم إلا عندما يقع قبول القاعدة، وذلك «لدعم انتظام موجود مسبقاً» (1970: 471). بالمقابل، يتم هنا التمييز بين وصف الحالة الموجودة والحالة المتخيلة التي يتم اختراعها في اللحظة من أجل المناسبة.

• **النموذج (Le modèle)**

الحجة الأخيرة المتعلقة بالحالات الخاصة، التي قدم بيرلمان لها وصفاً، هي النموذج، الذي نقترح له القدوة (l'imitation). والنموذج في تعريفه الدقيق هو مثال نقترحه لأنفسنا، أو نقترح اتباعه. وبهذا فإنه يمثل معياراً، حتى وإن كان يعتبر حالة خاصة. فعندما يقول أب لابنه: «عندما كان نابليون في سنك كان الأول في فصله» (1970: 495)، فإنه يقدم هذا الكائن كنموذج، وغالباً ما يكون هذا النموذج متعالياً في كل شيء، أو على الأقل في بعض سلوكياته الحقيقية، أو المفترضة، كما في هذا المقطع لمنتيسكيو (Montesquieu)، والذي يورده بيرلمان (1970: 492): «هكذا فعندما لا نؤمن بوجود إله، علينا أن نحب دائماً العدالة؛ أي القيام بمجهود كبير للتشبه بهذا الكائن الذي نملك عنه فكرة رائعة والذي، في حالة وجوده، سيكون بالضرورة عادلاً». ولقد ذكر بيرلمان في عجالة النموذج النقيض، وهو مثال يجب عدم اتباعه.

بالنسبة للشخص الذي يريد الحِجَاج؛ فإن ذكر اسم شخص ما كنموذج يقتضي قبول القيمة التي يمثلها. عليه فإن ذلك الابن، الذي ذكر والده نابليون أمامه كنموذج، قد لا يعدم الرد بقوله: «وفي سنك قد أصبح إمبراطوراً». أخيرا يتناول بيرلمان مطولا «الكائن المثالي كنموذج». فعيسى، مثلا، قدمه بوسويه كنموذج «للملك الكامل (...)، الذي أراد إخضاع نفسه للقواعد التي وضعها والقوانين التي سنّها» (1970: 497).

• **المماثلة (L'analogie)**

بعد الحديث عن الحالة الخاصة يثير بيرلمان مسألة الاستدلال بالمماثلة التي تم اختزالها في المماثلة بمعناها المحدود وبالكناية التي لا ينظر إليها هنا كصورة أسلوبية وإنما «كمماثلة مكثفة» لها هدف حجاجي. لقد حيد، كما شاهدنا، المقارنة، التي يمكن أن تنتمي من عدة أوجه، كما لاحظ روبول (في إحدى النقاط القليلة التي يختلف فيها عن تصنيف بيرلمان)، إلى الحجج «المؤسسة لبنية الواقع».

ويقول بيرلمان إنَّ المماثلة كوسيلة للدليل، أي كاستدلال، ينظر إليها بشك أحياناً، خاصة من قبل أولئك الذين يبدون معارضة حادة للترابطية (antissociationnisme) (534:1970). في هذا الإطار فإن المماثلة لن تتجاوز أن تكون شكلاً هزيلاً من مناهج الاستدلال، التي تفضل أولاً البحث عن الهوية، ثم التشابه، وأخيراً، وحال عدم وجود ما هو أفضل أو في حال ترقب الأفضل، يتم البحث عن المماثلة. ما يحاول عمله بيرلمان، إذن، هو إعادة الاعتبار للمماثلة. يقول: «يجب على كل دراسة مجملة للحِجَاج أن تعطي للمماثلة مكانها كدليل» (1970: 500). وإن المماثلة هي «إحدى خصائص التواصل والاستدلال غير الصوري»، و«لها مكان في قلب الرؤية الأصلية للكون» (1988: 127).

فما المماثلة؟ هي قبل كل شيء تأسيس علاقة بين ما يراد الدفاع عنه (ما يسميه الموضوع le thème)، وبين عنصر يجري البحث عنه في موقع آخر من الواقع هو المثيل (le phore)، والذي يكون مقبولاً سلفاً لدى المتلقي (نحن دائماً هنا في عملية البحث عن الاتفاق المسبق). العملية إذن عبارة عن «توضيح موضوع بواسطة مثيل له» (1988: 129)، و«نقل قيمة المثيل إلى الموضوع» (1970: 512). هذا يتضمن، كما هي الحال غالباً في الحِجَاج، توضيح بعض العلاقات، وإهمال البعض الآخر. فتقديم الحرب كمثيل «هو للعبة الشطرنج» إعفاء للنفس من إبراز ويلاتها. وفي المماثلة، وذلك على عكس المثال، يجب أن ينتمي الموضوع والمثيل إلى مجالين مختلفين، وإلا فإن الأمر لن يعدو أن يكون، ببساطة، حالتين لقاعدة واحدة. والسمة الأخرى التي تميز المماثلة، بالنسبة لبيرلمان، هي أن الأمر يتعلق «بتشابه في العلاقة»، أكثر منه علاقة تشابه، بمعنى أن المماثلة تقيم علاقة في داخل الموضوع وعلاقة في داخل المثيل.

هكذا نقرأ في نص إبيكتت (Epictète) (1970 :512): «عندما يضع طفل يده في قارورة ضيقة الفتحة لكي يأخذ بعض التين والجوز، ثم يملأ يده، فماذا سيحدث له؟ لن يستطيع إخراجها، وسيشرع في البكاء. سنقول له: «اترك بعض ما في يدك، وستتمكن من إخراجها». وأنت عليك فعل ذات الأمر بالنسبة لرغباتك. تمن قليلاً من الأشياء وستحصل عليها». نفرق في هذا النص بين المثيل، حيث نجد الطفل الذي يجب عليه التفريط في الكثير من أجل الحصول على القليل، وبين الموضوع، حيث يتضمن إشباع بعض الرغبات التنازل عن إشباع كل الرغبات التي تظهر وكأنها في متناول اليد.

إن المماثلة عموماً هي إقامة علاقة ربط بين (أ) و (ب)، في الموضوع وعلاقة ربط بين (ج) و(د) في المثيل. هذه العلاقات الرباعية تتشكل أحياناً لتجتمع في رابط من ثلاثة أطراف، مثلما نجد في هذا النص، المنسوب لهيراكليت (Héraclite)، حيث «الإنسان في نظر الإله ساذج بنفس درجة سذاجة الطفل في عيون الرجل» (1970: 503). نرى أن العلاقة بين الإنسان (أ) والإله (ب)، والتي تمثل الموضوع، قد دخلت في علاقة تسمح بعملية «نقل للقيمة» إلى العلاقة بين الطفل (ج) والرجل (د). هنا توجد أربعة محاور، إذا اعتبرنا الرجل (د) بمعنى الإنسان البالغ، ولكن حقيقة العلاقة في صياغتها لا تتشكل سوى من ثلاثة محاور فقط.

وهناك مماثلة «إقصائية»، خاصة في العلوم، على الرغم من ضروريتها كمنطلق للحدس، قبل أن تتم العودة للاستدلال التجريبي أو الرياضي. وكما يعبر بيرلمان عن ذلك برشاقة، فإن رجل العلم «وبعد أن تكون المماثلة قد سمحت له بتوجيه تحرياته (...)، سيقوم ببناء الموضوع بطريقة مستقلة عن المثيل (...)، ويمكنه الاستغناء عن المماثلة، مثله مثل متعهد العمل الذي يفكك سقالته بعد أن يكون قد انتهى من بناء المبنى. ولكن هناك مجالات عديدة لا يمكن فيها إقصاء المماثلة» (1988: 128). هذه الملاحظة التي يقدمها بيرلمان توضح جيداً الدور الذي يريده للحِجَاج، أي طريق ثالث بين البرهان العلمي الذي يستخدم وسائل استدلال مختلفة (حتى وإن تشابهت بعض نقاط الانطلاق، كالمماثلة هنا)، ووسائل الإقناع التي لا تستخدم الاستدلال. إن «ضرورة الإبقاء على المماثلة» يشكل فضاء ضرورياً لاستخدامها، ليس فقط في العلوم البحتة، أوالتجريبية، أو الفلسفية، ولكن حتى في مجال المعرفة العامة.

• **الكناية (La métaphore)**

لا يعتبر بيرلمان الكناية صورة أسلوبية، وإنما ينظر إليها كحجة، وذلك على عكس ما تقوله التقاليد الأدبية. إنها تنبني، كما يقول، على شاكلة المماثلة، والتي هي تكثيف لها يعمل «بفضل الاندماج بين الموضوع والمثيل»(1988: 133). لذلك نجد بيرلمان يستخدم عبارة أرسطو «مساء الحياة»[20]، والتي يقصد بها التقدم في السن، ويراد منها الإقناع بأنها النهاية. فالمماثلة

(20) العبارة في النص هي «مساء الحياة» (soir de la vie) وكان يمكن ترجمتها «خريف العمر» التي تعتبر أكثر استخداماً ودلالة في الثقافة العربية، وربما أكثر عمقاً، لكن لكون الكناية تقوم على صورة المساء كنهاية لمسيرة اليوم تركناها كما هي. ونعتقد أن الفكرة قد وصلت للمتلقي. (المترجم).

المكثفة هنا هي: التقدم في السن (أ) بالنسبة للحياة (ب) مثل المساء (ج) بالنسبة لليوم (د). هنا تختفي المحاور (أ) و (د) وتندمج في صيغة واحدة مع المحاور (ب) و (ج).

«كل مماثلة تصبح تلقائياً كناية» حسب قوله، وقد يكون «خطأ نظرياً» اعتبار الكناية هنا كصورة (1970: 540). لا يوجد إذاً بين المماثلة والكناية إلا اختلاف في التركيب، في داخل ذات بنية الاستدلال.

الفصل بين المصطلحات

تعتمد جميع تقنيات الحِجَاج الثلاث التي تم عرضها، وكل واحدة بطريقتها الخاصة، على بناء، أو اختراع، أو توضيح، لعلاقة قائمة في الواقع. أما التقنية الرابعة، التي يقترحها بيرلمان، فتنطلق من وجهة نظر مختلفة، وهي فصل علاقة أولية موجودة في مصطلح ما، أو عبارة ما، ومقدمة كوحدة مترابطة. ذلك يعني أنه لكي يقوم الحِجَاج فإنه يتم «كسر» هذه الوحدة وإظهار المصطلحات المتمايزة التي تغطيها.

ففي نص لبيركلي (Berkeley) عن المادة، يقترح الكاتب الفصل بين المصطلحات قائلاً: «لا توجد مادة إذا قصدنا بذلك ماهية (une substance) غير مفكِرة توجد خارج العقل: لكن إذا قصدنا بالمادة شيئاً محسوساً يكون تصوره شرط وجوده، فإن هناك مادة» (1988: 150).

إن الفصل بين المصطلحات يجب تمييزه، بشكل واضح، عن إستراتيجيات الحِجَاج المعاكسة، التي يقصد بها محاولة فك ما يقدمه الخطيب كشيء مترابط: «إن الفصل بين المصطلحات يحدد إعادة تشكيل عميقة نوعاً ما للمعطيات المتصورة التي تستخدم كأساس للحِجَاج: أي أنه، في هذه الحالة، لا يقصد به قطع الحبل الموصل بين العناصر المعزولة، وإنما تغيير بنية هذه العناصر ذاتها» (1970: 551).

لماذا يتم اتباع هذه الطريقة؟ بالنسبة لبيرلمان، يتيح الفصل بين المصطلحات، في أغلب الأحيان، حل «مشكلة التنافر» (problème d'incompatibilité). لذلك خصص جزءاً مهماً من عمله لمناقشة هذا الموضوع، وذلك بعرض نوع من الفصل يمثل له «النموذج النمط لأي فصل مصطلحات» (1970: 556)، وهو الفصل بين «المظهر» و«الواقع».

وهكذا فالكثير من عمليات الفصل تقدم تحييداً بين «المصطلح 1»، الذي يعتبر غير ذي قيمة، بسبب ارتباطه بالمظهر، وبين «المصطلح 2»، الذي له قيمة عالية بسبب ارتباطه بـ«الواقع الحقيقي». هذه الثنائية النموذجية، أي المظهر / الواقع، تتجزأ إلى ثنائيات أخرى، مثل الوسيلة/ الغاية، العرضي/ الجوهراني، غير لازم الحدوث / لازم الحدوث...إلخ.

نستطيع أحياناً المطابقة بين هذه الحجج وطريق التعبير عنها؛ فمثلاً المصطلح (2)، في عملية الفصل (العنصر المفضل)، يطلق عليه غالباً «التعبير الدقيق»، في حين المصطلح (1) يكون مرفقاً به أحياناً زيادة مثل «ما يسمى» أو «ما يشبه». ففي هذا النص لماريتان (J. Maritain) نقرأ: «عندما يقوم من يسمى بالملحد بإنكار وجود الله؛ فإنه ينكر وجود كائن عاقل يسميه إلهاً، ولكنه ليس الله، إنه ينكر وجود الله بسبب خلطه بينه وبين هذا الكائن العاقل (...). إن الملحد الحقيقي عندما ينكر وجود الله فإن إنكاره، في واقع الأمر يتم عن طريق التحول الشامل في كل قيمه، وأن ينزل في أعماقه وجود هذا الإله الذي هو أصلاً موضوع الإدراك والإيمان، وسوف ينظر إليه بمعناه الحقيقي» (1970: 582). ويشير بيرلمان إلى أن الفصل كإجراء في الحِجَاج رفضه الفلاسفة «الذين يسمون مضادي الميتافيزيقية، أو الوضعيين (positivistes)، أو النفعيين (pragmatiques)، أو الظواهريين (phénoménologiques)، أو الوجوديين (existentialistes) (والذين) يؤكدون بأن الواقع الوحيد هو واقع الحضور» (1970: 560)، وأن غير ذلك سيجعلنا نقع فيما يسميه نيتشه «توهمات العوالم الخفية». ولكنه يضيف، بأن هؤلاء الفلاسفة؛ كالوجوديين مثلاً، لا يمكن أن يتجاهلوا مثل عمليات الفصل هذه.

2 - تولمن: الحِجَاج، استخدام يومي

اشتهرت نظرية تولمن وتم التعرف عليها من خلال نموذجه المشهور للحجة. هذا الاختزال يبدو كاريكاتورياً، خاصة أنه يخفي اهتمامه الإبستيمولوجي الأساسي. فتولمن، قبل أي شيء، هو فيلسوف للمعرفة، كما تشهد على ذلك عناوين كتبه عن العلم والمادة والزمن[21]. وكغيره من الفلاسفة الأنجلوسكسون، تنتمي بيئته النظرية والمفهومية

(21) فلسفة العلم: مدخل، التوقعات والفهم: بحث في أهداف العلم، بنية المادة واكتشاف الزمن.
(The philosophy of Science: an introduction, Foresight and understanding: an Enquiry Into the Aims of Science, The Architecture of Matter, The Discovery of Time).

للوضعية المنطقية، التي سادت حتى منتصف القرن، وللمعارضة التي أثارتها منذ ذلك الحين. في هذا الصدد يجب الإشارة إلى الأصالة الحقة لتولمن، فهو الوحيد، أو على الأقل الأول، الذي عارض الوضعية ومنطقيتها صراحة من خلال تطوير نظرية في الحِجَاج. فلا التداولية (شارل بيرس: كتابات شارل بيرس: إصدار زمني[22]، وشارل موريس في أسس نظرية العلامات[23]، ولا فلسفة اللغة العادية (جيلبير ريل: مفهوم العقل[24]، وجون أوستن: كيف تؤدي الأشياء بالكلمات[25]، وجون سيرل: الأحداث اللغوية[26]وغيرهم كثيرون) تناولت الحجج صراحة، على الرغم من أنه كان بإمكانها أن تكون مكاناً طبيعياً للتنظير ولتطوير مفاهيم الحِجَاج. بالتأكيد قد نجد مفاهيم الحِجَاج والحجة في استخدامات هؤلاء، لكن ذلك لتعلقها فقط ببعض سمات وتصنيفات المنطق التقليدي، دون وضع نظرية حقيقية في الحِجَاج. هذه الملاحظة التي تلفت الانتباه يمكن تعميمها على كل الفلسفة التحليلية، على الأقل في بداياتها، التي يمكن القول بأنها لم تهتم نهائياً بالحِجَاج. وكدليل على ذلك، نجد أن الموسوعة الفلسفية لبول إدوارد (Paul Edwards) لا توجد فيها مادة مستقلة عن الحِجَاج أو الحجة، أو حتى ذكر عرضي لتولمن.

لقد كان عمل تولمن في الغالب ذا بعد كشفي (Heuristique)، وكما وضح في بداية كتابه «استخدامات الحِجَاج»؛ فإن قصده الواضح كان محاولة جذب الانتباه إلى حقل البحث في الحِجَاج، أكثر من محاولة المعالجة المنهجية. ولقد واصل هذا العمل بذهنية محددة، وكما يبين ذلك في خاتمة كتابه، فإن محاولته رسم خطوط الحِجَاج تستند في جزء كبير منها إلى التساؤل عن وضع المنطق في شكله الصوري.

ليس من السهل دائماً الوصول سريعاً إلى فهم هذا التعارض، الذي هو سبب في عدم فهم تفكير تولمن. والواقع أن الحِجَاج والمنطق عنده ليسا في حالة تصادم، وهذا على خلاف ما قد توحي به القراءة السطحية لتولمن. فهو لم يلق بالحِجَاج خارج المنطق، وإنما قام بالأحرى بعتق المنطق من تشكيله الرياضي ودفعه باتجاه الحِجَاج. أي أنه لا يهاجم

(22) (Peirce: Writings of Charles S. Peirce: a Chronological Edition).
(23) (Charles Morris: Foundations of the Theory of Signs).
(24) (Gilbert Ryl: The concept of Mind).
(25) (John Austin: How To Do Things With Words).
(26) (John Searle: Speech Acts).

المنطق، وإنما المنطق الصوري الرياضي. وفي هذا النطاق يمكن فهم نظريته في الحِجَاج كإعادة صياغة وتجديد للمنطق. ثم من وجهة النظر هذه، ليس من المبالغة القول بأن ما قام به تولمن يعد نظرية موسعة للمنطق. وللتحديد أكثر، يمكن القول بأن عمله كان محاولة لتحويل المنطق من علم صوري إلى علم ممارسة[27]. فهو يأسف لكون المنطق تطور حتى الآن بمعزل عن النقاش العادي، وأن من المحزن حدوث ذلك الفصل بين المنطق الرياضي ومحاولاتنا اليومية في الإثبات، وتقديم الأسباب، والدوافع لآرائنا ومواقفنا المختلفة. ويرى أن صياغة المنطق في شكل رياضي قد قادت إلى نتيجتين كبيرتين وسلبيتين: الأولى: أنها حرمته من جزء كبير من قدرته على التطبيق، والثانية: أنها أدت به، من الناحية الإبستيمولوجية، إلى طريق مسدود.

الحجة: التبرير في السياق

تتميز الحجة، كما يتناولها تولمن مبدئياً بصورة حدسية، بوظيفتها التبريرية؛ فالحجة بالنسبة له، هي كل قضية (Proposition) (claims) نقدمها كتأكيدات (assertions)، ومصاغة بشكل، أو بآخر، كأسباب (grounds). ونجد في الترجمة الفرنسية لكتابه أن مصطلح (claims) قد تمت ترجمته «مطالبات» (revendications) ومصطلح (grounds) قد تمت ترجمته «دافع» (motif). ونعتقد أن من الأفضل كثيراً ترجمتهما بالمصطلحات التي وضعناها. فكلمة «قضية» توحي في دقة أكبر بذلك الجزء من الحجة الذي تقدم فيه فكرة، أو مسألة، أو وجهة نظر، وذلك على عكس كلمة «مطالبة» ذات المعنى الفضفاض. أما بالنسبة لمصطلحي: «سبب» و«دافع»؛ فإن مصطلح «دافع» اختزالي جداً لكي يطلق على مجموعة الأشياء التي يمكن طرحها لمساندة المقترح، في حين أن مصطلح «سبب» أكثر مناسبة لأداء هذا الدور. ونود الإشارة بأن مصطلحي: «قضية» و«سبب» يجب اعتبارهما كمصطلحات توليدية تقنية تماماً، فهي تشير إلى أنواع، أو مجموعة خاصة، من المتغيرات المحتملة للعنصرين المكونين للحِجَاج.

السمة الأولى للحِجَاج، كما يقدمه تولمن، هي خاصية تعدد التشّكل. ونلاحظ ذلك مباشرة من مجموعة أمثلة الحجج التي يقدمها: تنبؤ بالتغيرات الجوية، ادعاء بالتقصير

(27) (أي من idealized logic إلى working logic). نص مكتوب في متن الكتاب ووضعناه هنا للتوضيح. (المترجم).

ضد أحد أرباب العمل، الدفاع عن شخصية تاريخية ، تشخيص طبي، التشكيك في مصداقية شخص ما، تعليق على عمل رسام.

في كل حالة من هذه الحالات، توجد قضية مقدمة تأخذ أشكالاً متعددة ومحددة أكثر: إخبار عن حال مستقبلي، دعوى، منافحة، تشخيص، اتهام، نقد. هذه القضية مرتبطة بأسباب تدعمها، وهذه الأسباب يمكن التصريح بها أو تركها ضمنية. وفي كل الحالات، فإن القضية، ومن حيث المبدأ، يمكن أن تستدعي تحديداً أكثر للأسباب التي ترتكز إليها وتبررها. وهذه الأسباب يمكن أن تكون، كما قدمها تولمن، مبررات، أو معطيات، أو أدلة، أو اعتبارات، أو خصائص. وبشكل أكثر تحديداً، فإن الحجة، عند تولمن، عبارة عن خليط مكون من قضية وسبب، أو عدة أسباب تثبتها. وهذا هو ما يجعله يعتقد أن الحجة تمارس وظيفة تبريرية أصلية، وكل وظيفة أخرى لها تبقى ثانوية؛ بل عالة على هذه الوظيفة التبريرية.

هذا الطابع المتعدد للحِجَاج هو الذي قاد تولمن إلى استخدام مصطلح مهم جداً وهو «الحقل» (Champ). فتعدد أنواع الحجج يقود إلى التفكير في التأكيدات الكثيرة والمتنوعة التي يمكن أن يتشكل منها حجاج ما، وفي القضايا التي تكّون موضوع هذه التأكيدات، والأسباب المقدمة لتبرير هذه القضايا. فالحِجَاج يطرح وفقاً لاعتبارات متعددة جداً، إذ على سبيل المثال، نجد أن القضية والأسباب التي تبررها تكون من طبيعة مختلفة جداً إذا كان الأمر يتعلق بتشخيص طبي، أو بتقييم فني: فما يمكن احتسابه كحجة في حالة، ليس له ذات القيمة في الحالة الثانية، والعكس صحيح. فحسب هيئتها الأنطولوجية الخاصة، تتعلق الحجج بأنواع عديدة من المنطق، كما هو معتمد لدى الفلاسفة اليوم.

ولقد استخدم تولمن مصطلح «الحقل» لتوضيح ارتباط الحجج بنوع محدد من المنطق. ونجد أنه قد وضع تعريفاً غير مباشر لهذا المصطلح قائلاً: تنتمي حجتان لذات الحقل إذا كانت قضيتهما وأسبابهما تنتميان لنفس نوع المنطق، وعلى العكس من ذلك، تصبحان من حقلين مختلفين إذا كان نوع منطق قضيتهما وأسبابهما مختلفاً. فمثلاً، تشخيصان لطبيين عن مرضين مختلفين ينتميان، مع ذلك، لذات حقل الحِجَاج، في حين أن التقييم الفني ينتمي لحقل آخر مختلف تماماً.

وانطلاقا من الأمثلة الأولية التي تناولها تولمن قد نعتقد بتعارض الحِجَاج مع المنطق، وأنه لا توجد حجج منطقية (أو علمية)، أو أنه لا يوجد حقل منطقي للحِجَاج نهائياً. لكن أمثلة

أخرى في ثنايا تصريحه بمصطلح الحقل يدل على غير ذلك تماماً. فمن الأمثلة نجد تنبؤاً فلكياً، وتقييماً لنظرية علمية، ولنظرية في القواعد الهندسية. ومن جهة أخرى، وكما سنرى بعد قليل، فإن تولمن عندما يحلل المصطلحات المتعلقة بصيغ الحِجَاج، يطرح من ضمن ما يتناوله، الاستحالة الرياضية. بهذا يتضح أنه يعتقد بوجود حجج منطقية وبالتالي حقل منطقي للحِجَاج بجانب الحقل القانوني، والمعنوي والجمالي، والأخلاقي وغيرها من الحقول.

إن مصطلح الحقل ينفتح على مجموعة من الأسئلة مثل: هل تعتمد الحجج على حقلها في بعض الوجوه وتستقل عنه في وجوه أخرى؟ على الرغم من التنوع الواضح لحقول الحِجَاج، هل يمكن استخراج طريقة مشتركة لجميع الحجج؟ هل يوجد حقل رئيس، وهو المنطق الصوري القادر على توليد معايير تقييم عامة للحِجَاج؟ هل توجد بعض الحقول، خاصة حقول المنطق الرياضي وعلوم الفيزياء، أكثر عقلانية وأكثر معرفية (cognitifs) من الحقول الأخرى؛ كالقانون، والأخلاق والجماليات؟ لقد وضع تولمن الجزء الأساسي من كتابه لمناقشة هذه الأسئلة. واتخذ منها موقفاً عاماً، هو أنه على الرغم من وضعه لنموذج، يمثل الإجراء الذي يراه مشتركاً للحجج، إلا أنه يرفض هيمنة المنطق الصوري، خاصة على المستوى الإبستيمولوجي.

بعد ذلك تناول تولمن السؤال الأولي المتعلق باستقلالية الحجج، أو عدم استقلاليتها، فيما يتصل بحقلها، وذلك من خلال المماثلة بين الحِجَاج والقانون، بين الآلية القضائية وآلية الحِجَاج. وللدقة يمكن القول: إن الموضوع يتعلق بمماثلة فقهية (jurisprudentielle). ويعتقد أن بذات الطريقة يوجد تشابه مهم في الإجراءات المتبعة للتعامل مع أنواع مختلفة للحالات القضائية، حتى وإن كانت العناصر، المتفق عليها كأدلة، تختلف من نوع لآخر. فمن الممكن استخراج مراحل متشابهة في عملية تناول الحجج، على الرغم من انتمائها لحقول متمايزة، وعلى الرغم من التنوع الكبير في التوليفات المحتملة بين الأسباب والقضية.

قدم تولمن، قبل أن يبني هذه المراحل في نموذجه للحجة، خمسة فروق بين الأنواع المختلفة للحجة، هي: الفروق بين الحجج التحليلية والحجج الجوهرية[28]، والفروق بين الحجج الصالحة قطعاً والحجج غير الصالحة قطعاً[29]، والفروق بين الحجج المستخدمة

(28) (analytiques) و (substantiels).
(29) (arguments formellement valides) و (arguments non formellement valides).

لضامن والحجج المؤسسة لضامن[30]، والفروق بين الحجج التي تحتوي على مصطلحات منطقية والحجج التي لا تحتوي على مصطلحات منطقية[31]، وأخيراً، الفروق بين الحجج اللازمة والحجج المحتملة[32].

أكثر هذه الفروق أهمية، هو التمييز بين الحجج التحليلية والحجج الجوهرية. للوهلة الأولى، يبدو أنه يقابل، تماماً، التمييز الكلاسيكي لكانت (Kant)، بين الأحكام التحليلية والأحكام التأليفية (synthétique). لكن، بالنسبة لتولمن، الحجة التحليلية هي حجة تكون قضيتها موجودة، بطريقة ما، في الأسباب، أو أن قضيتها لا تحتوي على معلومات غير موجودة سلفاً في الأسباب، سواء كان ذلك بصورة ضمنية أو صريحة. ويعطي تولمن كمثال لهذا النوع من الحجج، القياس المضمر التالي:

آن هي إحدى أخوات جاك
كل أخوات جاك شعرهن أصهب
إذاً فشعر آن أصهب

في الحجج التحليلية، يعني قبول الأسباب القبول الضمني للقضية، ذلك لأن القضية موجودة سلفا في الأسباب. من أجل هذا يتم التعبير دائماً عن الحجة التحليلية، أو يمكن أن يعبر عنها، في شكل تكرار لا طائل من ورائه (tautologie). أما فيما يتعلق بالحجة الجوهرية فهي، على العكس، حجة لا تحتوي فيها الأسباب على المعلومة المقدمة في القضية. ويمكن قول ذلك بطريقة أخرى، وهي أن القضية تحتوي على معلومات غير موجودة في الأسباب. ويعطي تولمن كمثال لهذا النوع حجة شبه القياس المؤلف (quasi syllogistique) التالية:

آن هي إحدى أخوات جاك
كل أخوات جاك اللاتي رأيناهن حتى الآن شعرهن أصهب
إذاً فمن المحتمل أن يكون شعر آن أصهب

هذا المثال يلقي الضوء بوضوح على أن الفرق الأساسي بين الحجة التحليلية والحجة الجوهرية يكمن في درجة المعرفة بالموقف الذي يتمحور حوله الحِجَاج. وهذا التحديد

---

(30) (arguments utilisant une garantie) و (arguments établissant une garantie).
(31) (arguments comprenant des termes logiques) و (arguments ne comprenant pas de termes logiques).
(32) (arguments nécessaires) و (arguments probables).

يسمح بفهم سبب كون الحجج الرياضية هي أكثر الحجج تحليلية، إذ هي نظام رياضي يعطي، بالضرورة، كل «المعارف» المتعلقة بالعمليات التي يتيح القيام بها.

وفيما يتعلق بالفروق بين الحجج الصالحة قطعاً وتلك غير الصالحة قطعاً، فلها علاقة بالتصريح بحالة الحجة. فتولمن يرى أن الحجة تكون صالحة قطعاً عندما تكون أسبابها مصاغة بصورة صريحة على أنها أسباب، وعندما يحدد نوع الاستنباط الذي تفرضه. في أي حالة معاكسة تصبح الحجة غير صالحة قطعاً.

وإذا نظرنا إلى الفروق بين الحجة المستخدمة لضامن والحجة المؤسسة لضامن؛ فسنجد أنه في حال كانت صلاحية أسباب الحجة مقبولة سلفاً، فإن هذه الحجة تستخدم ضامناً، فيما تكون الحجة تؤسس لضامن عندما لا تزال أسبابها مفترضة أو ظرفية. ويعطي تولمن المثال التالي للحجة المستخدمة لضامن:

بيترسون سويدي

من النادر أن تجد سويدياً كاثوليكياً

بيترسون إذاً غير كاثوليكي

أما بالنسبة لمثال حجة تؤسس لضامن فيعطي تولمن التنبؤات الفلكية التي تتكهن بالكسوف في لحظة ما انطلاقاً من المواقع الحالية والسابقة، وسير الكواكب المرتبطة به. ويؤكد تولمن قبوله أن التمييز بين هذين النوعين من الحجج يعود في مجمله إلى الفرق بين الاستنباط والاستقراء، كما يضعه للمناطقة وليس للاستخدام العادي لهذين المصطلحين.

التمييز الرابع بين الحجج يفرق بين تلك التي تحتوي على مصطلحات منطقية؛ كالروابط ومحددات الكمية (Quantificateurs) والحجج التي لا تتطلب صياغتها مثل هذه المصطلحات. أما التمييز الخامس، والأخير، فهو بين الحجج اللازمة والحجج المحتملة. فقضية بعض الحجج يمكن استنباطها بصورة أكيدة، مثلما نجد في الحساب الهندسي؛ وبعضها الآخر يمكن استنباطه بصورة محتملة، مثلما نجد في التقييم الجمالي.

هذه الفروق الخمسة بين أنواع الحجج تحدد، وفقاً لما يراه تولمن، بين بعضها بعضاً عدة تعارضات مختلفة ومستقلة، مما يجعلها تسمح بوضع تصنيفات متقاطعة. ومن جهته حاول أن يوضح أن التمييز بين الحجج التحليلية والحجج الجوهرية لا يتوافق في كل النقاط مع الفروق الأربعة الأخرى: فالحجة التحليلية ليس بالضرورة أن تكون صالحة

قطعاً، ومستخدمة لضامن، ومحتوية على مصطلحات منطقية، ولازمة. وفي ذات الوقت فإن الحجة الجوهرية ليست بالضرورة غير صالحة قطعاً، وتؤسس لضامن، وغير محتوية على مصطلحات منطقية، ومحتملة.

كان تولمن يحاول، خاصة، فصل الهوية المفترضة بين الحجة التحليلية والحجة اللازمة، من جهة، وبين الحجة الجوهرية والحجة المحتملة، من جهة أخرى. فبالنسبة له توجد حجج جوهرية ولازمة في الوقت ذاته، كالحسابات الرياضية التطبيقية مثلاً، أو الاستنباطات على طريقة شرلوك هولمز. وهناك حجج تحليلية ومحتملة في الوقت ذاته؛ كشبه القياس المؤلف، مثل ذلك الذي يستنتج أن بيترسون قد لا يكون كاثوليكياً انطلاقاً من المقدمات التي تؤكد أنه سويدي وأن السويديين نادراً ما يكونون كاثوليكيين. وتوضح هذه الاحتمالية المزدوجة بجلاء، وعلى العكس مما قد يظهر لأول وهلة، أن التمييز الذي يقيمه تولمن بين الحجج التحليلية والحجج الجوهرية بعيد عن أن يقابل التمييز الكانتي (Kant) بين الأحكام التحليلية والأحكام التأليفية؛ بل يمكن القول بأنه يعارضه.

شطط المنطق الصوري وعدم كفايته

على الرغم من اعتراف تولمن بالحجة المنطقية، وبحقل منطقي في الحِجَاج؛ إلا أنه يرفض فكرة أن جميع أنواع الحجج والحقول الأخرى في الحِجَاج يجب أن تقاس على طريقة الحجج والحقل المنطقي. لهذا فقد رفض وجهة النظر القائلة بأن معايير الحقل المنطقي كلية (univer-saux)، ويمكن وفقاً لها تقييم معايير الحقول الأخرى. ورفض الموقف الذي يختزل هذه الحقول في الحقل المنطقي. وباختصار، فقد هاجم تولمن زعم المنطق الصوري بتحكمه في العقل.

هذا التشكيك في المنطق الصوري، أو الرياضي، يقدمه تولمن في شكل فرضية، هي: وجود تباعد رئيس وجوهري بين أصناف الحِجَاج العملية العادية وأصناف المنطق الصوري. ويرى تولمن هذا التباعد، بصورة محددة، في التعريف المختزل الذي يقدمه المنطق الصوري لمعايير تقييم صلاحية الحجج: ففي حين ترتبط الكيفية (modalité) (مثل الاحتمالية والضرورة وغيرهما) بحقل استخدامها؛ فإن المنطق الصوري يعطيها تعريفاً غير متغير.

وجه تولمن الكثير من الانتقادات للمنطق الصوري، في مقدمتها أنه يتعلق حصرياً بالقياس المضمر، خاصة التحليلي مثل:

آن هي إحدى أخوات جاك
جميع أخوات جاك شعرهن أصهب
إذاً فشعر آن أصهب

هكذا، فإن المنطق الصوري ينحصر في أحد الأوجه العشرة المختلفة التي تبرزها الفروق الخمسة بين أنواع الحجج، وهو: ميزتها التحليلية المحتملة. ولهذا فالمنطق الصوري يعنى بنوع واحد من هذه الفروق، وهو ذلك المتعلق بالحجج التحليلية والحجج الجوهرية، ويتجاهل بالتالي الأنواع الأربعة الأخرى: التمييز بين الحجج الصالحة قطعاً والحجج غير الصالحة قطعاً، وبين الحجج المستخدمة لضامن والحجج المؤسسة لضامن، وبين الحجج التي تحتوي على مصطلحات منطقية والحجج التي لا تحتوي على مصطلحات منطقية، وبين الحجج اللازمة والحجج المحتملة.

والواقع أن المنطق الصوري لا يتجاهل فقط هذه الفوارق الأربعة في ذاتها، لكنه يدرجها تحت التمييز بين الحجج التحليلية والحجج الجوهرية. وأحد الانتقادات المحددة التي وجهها تولمن للمنطق الصوري، هو أنه يتداخل مع المكونات في الفروق الأخرى، ذات البعد التحليلي. هذا التداخل يقيمه أهل المنطق، خاصة بين الحجج التحليلية، من جهة، والحجج اللازمة والمستخدمة لضامن من جهة أخرى. فوفقاً لتولمن، يعتبر المناطقة بصورة خاطئة، أن الحجة التي لا تحتوي قضيتها على معلومة غير موجودة سلفاً في سببها، هي حجة يتم استنباط قضيتها بصورة حتمية وأكيدة، وتكون صلاحية أسبابها مؤسسة سلفاً. هذا في حين أنه يرى أن الحجج الجوهرية، مثلها مثل الحجج التحليلية، يمكن أن تكون لازمة، أو محتملة ويمكن أن تستخدم أو تؤسس ضامناً؛ بل إن تولمن يذهب أبعد من ذلك، عندما يؤكد أن المناطقة بيناء حجتهم على السمة التحليلية للقياس المضمر المؤلف التحليلي كدليل، فإنهم يعطونها سمة الحجة الصالحة قطعاً، والمستخدمة لضامن، والمحتوية على مصطلحات منطقية، واللازمة (nécessaire).

إن كون القياس المؤلف يتميز حقاً بهذه السمات الأربع، لا يعني أن السبب يكمن في كونه تحليلياً. ومرة أخرى، يعارض تولمن المناطقة بقوله إن الفروق الخمسة بين أنواع الحجج مستقلة عن بعضها. لكن مزج هذه الفروق الأربعة الأخيرة مع الفرق الأول له نتيجة أكثر سوءاً. فباعتبار أن الصلاحية القطعية، واستخدام الضامن، والتعبير بمصطلحات

منطقية، واللزوم، كلها سمات ترتبط بالتحليلية؛ فإن المناطقة يجدون أنفسهم مضطرين لوضع الكثير من الشروط للحجة المبنية جيداً. وفي حين يرى تولمن، أن كون هذه التمييزات الخمسة بين أنواع الحجج، مختلفة ومستقلة عن بعضها، فإن جمع هذه السمات الخمس الخاصة بالقياس التحليلي ليس إلا تأليفاً واحداً من بين عدة تأليفات محتملة. وعليه فالقياس التحليلي ليس إلا نوعاً واحداً من أنواع الحجج المحتملة؛ بل وهو نوع خاص جداً، بسبب جمعه للسمات الأكثر قطعية التي تجعله لا يمثل باقي الحجج. والخطأ المبدئي للمنطق الصوري هو أنه جعل من هذه الحجة المثال والوحيدة المبنية جيداً. لهذا فقد صعد القياس التحليلي لأعلى مستويات معايير الحِجَاج، وهو المعيار الذي ترى وفقه جميع الأنواع المحتملة للحجج تظهر، من دون وجه حق، وكأنها غير مكتملة.

هذا التقييد، كما يرى تولمن، له نتائج ضارة بالمنطق نفسه، وبالعقلانية، وبالحِجَاج طبعاً. فهو أولاً يفترض تحديداً مهماً للمنطق بإقصائه لكل أنواع القياس من صيغ الاستدلال المحتملة والاكتفاء بالتحليلي منها فقط. فكل أنواع القياس المختلفة فقدت قيمتها بالتمييز غير المستحق للقياس التحليلي. ويمكن ملاحظة ذلك، خصوصاً مع القياسات الجوهرية (substantiels) للعلوم الفيزيائية والطبيعية: فوفق القياس التحليلي، خاصة عندما نأخذ التحليلية كشرط للحجة المبنية جيداً، فإن هذه القياسات الجوهرية ترى متهمة بانتهاج أسلوب المصادرة على المطلوب (pétition de principe)[33]. وبالإصرار على أن يكون القياس يحتوي في قضيته المعلومة الموجودة فقط سلفاً في الأسباب؛ فإننا نجد أنفسنا مجبورين على اعتبار القياس الجوهري مجرد استدلال دائري (raisonnement circulaire)[34]. وبتحديد الحِجَاج الجيد، وفقاً للقياس التحليلي فقط، فإن المنطق الصوري يقضي على نفسه بنفسه: إنه يختصر أدواته، وبالتالي فإنه يمنع نفسه من العمل بصورة جيدة خارج المجال الرياضي. ومن جهة أخرى، فإن أولوية القياس التحليلي التي يعطيها المنطق الصوري تعني أيضاً تقليص، بل يمكن القول خنق، حقل العقلانية. وتصبح «محكمة العقل» في تقلص حقيقي ومستمر: فالأخلاق وتقييم الجمال، والقانون، ونقد

---

(33) المصادرة على المطلوب هي حجة تكون فيها النتيجة موجودة في المقدمات، مما يجعلها حجة دائرية. ويرى بيرلمان أن هذه البرهنة حجاج خاطئ؛ لأنه يعتقد بالقبول المسبق لقضية مرفوضة. (المترجم).

(34) البرهنة الدائرية هي إحدى طرق البرهنة التي يحدث فيها عملية تدوير بين السبب والنتيجة. أي أن سبب نتيجة ما هو نفسه النتيجة للنتيجة التي هو سببها ومن الأمثلة ذلك السؤال المشهور عن أيهما ظهر أولاً البيضة أم الدجاجة؟ (المترجم).

الفن، والحكم على الشخصية، إضافة إلى العلوم التي يكون موضوعها «مادياً» أكثر مما هو صوري، توصم بأنها مسخ قبيح لكونها ليست مكونة من حجج تحليلية وإنما بالأحرى من حجج جوهرية.

إلا أن التأثير الأكثر سوءاً الذي سببه اختزال المنطق الصوري كان على الحِجَاج. فالمنطقية التي لا تعترف إلا بالقياس التحليلي كحجة مبنية بصورة جيدة تقرر ضمنياً بأن الحجج الأخلاقية، والجمالية، والعلاقات السببية، والأقوال عن الذهنيات الأخرى، وعن الأشياء المادية، وعن ذكرياتنا، وكل شكل للحِجَاج العملي واليومي ليس مقنعاً أو مُرضياً. وهكذا فهي ناقصة؛ لأنها إما جوهرية وليست تحليلية، أو غير صالحة قطعاً، أو مؤسسة لضامن وليست مستخدمة له، أو معبر عنها بمصطلحات ليست منطقية، أو محتملة وليست لازمة. كما يعتقد تولمن أن التطبيق الجوهري لمصطلحات الكيفية (أو محددات الكم)[35]، التي لم يعط لها الاهتمام بسبب ترجيح كفة القياس التحليلي في المنطق على أنواع الحجج الأخرى، جعل منها غير لازمة ولا محتملة، بل وغير مستحيلة. وبسبب هذه الطبيعة المتناقضة كان يجب تنحيتها لترتبط بالميتافيزيقيا.

لكن لا يعتبر انتفاض تولمن ضد زعم المنطق الصوري تقييم صلاحية الحجج، باستثناء القياس التحليلي، هو السبب في إلقائه هذه الحجج خارج المنطق. إنه يقر أن المنطق متوافق مع بعض الحجج الجوهرية. إنه فقط يضع هذا التوافق على مستوى مختلف من ذلك الذي يضعه المناطقة. فالحجج، كما يرى، سواء كانت تحليلية أو غير تحليلية، تخضع لحد أدنى من شرط المعقولية (intelligibilité): يجب أن يكون لها معنى وأن تكون مترابطة، أو متماسكة. فالحجة يجب أن تكون قابلة للفهم ويجب، بصفة خاصة، ألا يكون في قضيتها ما يناقض أسبابها. لكن هذه الضرورة، بالنسبة لتولمن، تأتي من ملاحظة أولية هي: أنها تتعلق بشرط احتمالية الحجة مهما كانت طبيعتها، وليس بالاعتراف بأن الحجة مبنية جيداً. ولا تفيد هذه الضرورة ذاتها إلا في رد الاعتراضات الابتدائية، التي يمكن أن تقدم ضد الحجة قبل تحليل فحواها.

إن مسألة الصلاحية الشكلية، بالنسبة لتولمن، لا يمكن أن تتعلق بأكثر من البنية «الشكلية» للحِجَاج. والخطأ الذي يقع فيه المناطقة هو تعميم هذه المواءمة في المنطق لتتجاوز البعد الشكلي ليتم تطبيقها على محتوى الحِجَاج، أي أن يكون شرط الترابط أو

---

(35) طريقة تقوم على إدخال الكم على المحمول. (المترجم).

التماسك شهادة ضمان لصلاحية الحجج. هذا الأمر بالتأكيد صحيح (لحد ما) على الحجج التحليلية، إلا أنه لا ينطبق البتة على باقي أنواع الحجج.

نموذج للحجة

تعتبر الحجة عند تولمن شيئاً ديناميكياً نشطاً: وهذا يتعلق بعملية تتبع طريقة عمل وانتشار وآلية ترتيب خاصة يمكن تمثيلها بنموذج تحليل. والنموذج الذي يقترحه ذو مظهر فقهي أكثر منه (شبه) رياضي هندسي. فهو يمثل تطوراً متدرجاً وليس شكلاً ثابتاً. ونقدم هنا الشكل المركب الأكثر اكتمالاً لنموذج الحجة لدى تولمن:

معطي (donnée)　　　إذن، محدد الكيفية (qualification modal)، نتيجة (conclusion)

بما أن　　　　　　إلا إذا

ضامن (garantie)　　　تقييد (restriction)

بمقتضى

أساس (Fondement)

إن الحجة عند تولمن هي الترتيب المنظم لمعطيات (D)، أثيرت من أجل تدعيم نتيجة ما (C). هذه النتيجة يمكن أن تكون موضوعاً لمحدد هيئة (Q). ويتم المرور من المعطيات إلى النتيجة بفضل الضامنات (G)، التي يمكن أن تقابل بعض القيود (R). هذه الضامنات بدورها تعتمد على أساس (F)[36]. ونجد في النسخة الإنجليزية أن نموذج تولمن مكون من:

Data (D), modal qualifier (Q), claim (C), warrants (W), conditions of (exception or rebuttal (R), backing (B

ونقدم هنا الترجمة الفرنسية[37] للمثال الذي يستخدمه تولمن لشرح نموذجه للحجة:

المعطى	إذن، محدد كيفية،	نتيجة
ولد هاري في برمودا	ربما	هاري مواطن بريطاني

(36) الرجاء مراجعة النموذج لفهم دلالات الأحرف اللاتينية. (المترجم).

(37) ومنها ننقل إلى العربية. (المترجم).

بما أن   إلا إذا

من يولد في برمودا هو عموماً فرد بريطاني   كان والداه أجنبيين أو أنه حصل على الجنسية الأمريكية

وذلك بمقتضى

أن القوانين والأنظمة تنص على أن من يولد في برمودا يعد مواطناً بريطانياً.

كما سبق ورأينا، يتعامل تولمن حدسياً مع الحجة كتوليفة ذات وظيفة تبريرية للفرضية وأسبابها. وعندما يضع الترتيب الأكثر تحديداً للحجة؛ فإنه يزيد من صعوبة هذه النظرة للأشياء. فالنتيجة تبقى ما تقترحه الحجة أو تؤسس له: وهي القضية المقدمة (أن هاري مواطن بريطاني). وتدعم هذه النتيجة معطيات تمثل الأسباب التي تبررها (أن هاري ولد في برمودا). وتضمن علاقة التبرير بين المعطيات والنتيجة بعض المبادئ، أو الاتفاقيات، التي تسمح بالمرور أو الاستنباط (القاعدة القائلة إن الشخص الذي يولد في برمودا يكون عادة بريطانيا). وقد حدد تولمن الفرق بين المعطيات والضامنات، من خلال التوضيح بأنه يماثل التمييز القضائي بين مسائل الحدث (questions de fait) ومسائل الحق (questions de droit). فالضامنات لا تسمح دائماً، بطريقة لازمة، المرور من المعطيات إلى النتيجة. فأحياناً كثيرة لا يكون الاستنتاج غير مشروط، وبالتالي تصبح هناك حالات استثنائية. وهكذا، فالنتيجة يمكن أن تكون نسبية، من خلال محدد الكيفية (السمة الاحتمالية للنتيجة أن يكون هاري مواطناً بريطانياً) مرتبط بالقيود والتحفظات المطبقة على الضامنات، التي تضع لها شروط التفنيد (إلا إذا كان والدا هاري أجنبيين أو أنه تحصل على الجنسية الأمريكية). وأخيراً، تستند الضامنات، التي تسمح بالمرور من المعطيات إلى النتائج، إلى بعض التأكيدات: فهي تتطلب وجود أساس (القوانين والأنظمة التي تقرر بأن من يولد في برمودا يكون مواطناً بريطانياً). وفي الغالب يكون أساس الحجة مسكوتاً عنه: أي أنه لا يحتاج إلى أن يصرح به إلا عندما يوضع الضامن محل شك وتساؤل.

الباب الثالث:

الدراسات المعاصرة في الحِجَاج والبلاغة

تنتشر الدراسات المتنوعة للحِجَاج في أكثر من اتجاه بحيث لا يمكن أن تشكل موضوعاً واحداً. إنها تمثل بقعة متشظية تتداخل فيها الاهتمامات النظرية، والعملية، والمقاربات التخصصية المختلفة (اللسانيات، علم العلامات، التواصل، الفلسفة، وغيرها). ولا يعتبر الحِجَاج، في الوقت الحالي، حقلاً من البحوث المتحدة، وإنما هو سلسلة من البحوث المتقاربة، عند البعض ومختلفة؛ بل ومتباينة عند غيرهم. لذلك فمن الصعب تقديم تصور منسق ومنظم له دون إضافات تكميلية ومعارضات مصطنعة. ومع ذلك فمن الممكن، ولأسباب تعليمية بحتة ، تحديد بعض الاتجاهات الكبيرة المترابطة أو المتوازية للبحوث المعاصرة في الحِجَاج. التميز الأساسي في هذا الصدد، الذي لا تزال له الغلبة، هو للغة، أو للتحديد أكثر، للثقافة الفكرية، على الرغم من عدم وضوح ذلك كما كان في الماضي القريب: فالبحوث الفرنكفونية، من جهة، والأنجلوفونية، من جهة أخرى، تتناول وتحلل الحِجَاج وفقاً لتصور عام، هو الاهتمام الاستكشافي وذهنية تأمليه، أو علمية مختلفة.

1 - البحوث الأنجلوفونية

لا يزال تولمن يمارس تأثيراً عميقاً وواسعاً على الدراسات الأنجلوسكسونية في الحِجَاج، والتي يشارك فيها هو ذاته (Toulmin, Rieke,Janik 1984) وإن كان هذا التأثير غير مباشر. وردود الفعل على كتابه «استخدامات الحجة» لم تكن وقتها كثيرة بالدرجة التي يمكن أن نتصورها اليوم. فهي، في جزء كبير منها، تفاعلات من المناطقة الذين كانوا يرغبون بالرد على هجوم تولمن ضد المنطقية (Logicisme). فلقد سمح نموذجه للحجة ببعض التطبيقات الدقيقة؛ إلا أن مشروعه الذي سماه المنطق التطبيقي، لم يكن في ذاته موضوعاً لحقل بحث مرتب في شكل محدد. ورغم غياب التسلسل الواضح فيها، إلا أن الدراسات الأنجلوفونية المعاصرة في الحِجَاج ظلت خاضعة تماماً للاختراق الذي أحدثه تولمن.

هذه الدراسات المنتشرة في العديد من الكتب والمقالات والدوريات العلمية، التي يختص بعضها بالحِجَاج فقط[38]، تنقسم إلى نوعين: تحليلات دقيقة للحجج الخاصة، أو الطرق

(38) مثل Argumentation و Argumentation and Advocacy. كما يورد المؤلفان في ثنايا الكتاب. (المترجم).

النموذجية في الحجَاج، والمحاولات الطموحة جداً للتنظير الكلي. وتتمحور الدراسات الأولى حول قطبين كبيرين متجاورين، هما : دراسة ما نسميه «المغالطات (Fallaces)» والمنطق غير الصوري، وهي دراسات تمتد في اتجاهات أكثر تطبيقية واستعمالية، والقطب الثاني هو التفكير النقدي، وما يمكن تسميته، تبعاً لذلك، «الحِجَاج التواصلي».

دراسة المغالطات (L'étude des fallaces)

عندما نشر شارل هامبلن (Charles Hamblin)، في عام 1972، كتاب المغالطات (Fallacies)؛ فإنه كان يعطي إشارة البدء لموضوع دراسات قديم جداً مثل المنطق ذاته. ولتحديده، فمن المهم حل المشكلة الأولية التي تسببها الترجمة لمصطلح Fallacy»»، إلى اللغة الفرنسية، حيث جرت العادة على ترجمة هذا المصطلح بـ«السفسطة»(sophisme)، أو «الاشتطاط – الاستدلال الزائف» (paralogisme)، ولكننا نترجمه بكلمة جديدة هي «Fallace»، وذلك بوحي من كريستيان بلانتان (1990) الذي اقترح له مصطلح «Fallacie». وهذا الاختيار له بعض المبررات. فمن جهة، يعتبر المصطلحان «السفسطة» و«الاشتطاط» غير مناسبين تقنياً، لكونهما محملين بإيحاء منطقي قوي جداً؛ فهما لا يستخدمان للتعبير عن حجة، وإنما يستخدمان تحديداً للتعبير عن استدلال خاطئ، وبالتالي معيب بمقتضى قواعد المنطق. هكذا فالاحتفاظ بهما يحمل سلبية خطيرة جداً وهي: الاعتقاد بأن المغالطات ليس لها من المنطق إلا طابعه فقط. والحال أنها، كما سنرى مستقبلاً، وكما ميزها هامبلن، فإن بعضها يمكن أن يكون صورياً والبعض الآخر غير صوري (informelles). فبالنسبة له، وللكثيرين من بعده، يمكن أن تعود الخاصية المعيبة (ظاهرياً) للمغالطة إلى عجز آخر في غير ميدان المنطق. بالتالي فإن «السفسطة» و«الاشتطاط» يصبحان اختزاليين، إذ لا يتيحان سوى الإشارة لنوع واحد محتمل من المغالطات، إضافة إلى أن هامبلن ذاته اختار طواعية مصطلح مغالطة (Fallacy)، ولم يستخدم مصطلح سفسطة (Sophism) الذي له المعنى العام نفسه للسفسطة في اللغة الفرنسية. ومن جهة أخرى، نجد أن أصل الكلمة الإنجليزية مغالطة «Fallacy» يعود للصفة «Fallace» الفرنسية المهملة. وبما أن اللغة الفرنسية لا تحتوي على مصطلح يطابق تماماً الكلمة الإنجليزية (Fallacy) فسيكون من الصائب ترجمتها بكلمة « «Fallace.

يشير هامبلن إلى أن دراسة المغالطات كانت، ومنذ أرسطو، ضعيفة، فلم يكن بالإمكان تقديم تنظير وتنظيم منهجي حقيقي لها، بسبب المنظور المنطقي الضيق جداً. وبسبب الامتياز، غير المستحق، للطرق السائدة للاستدلال، فإن الطرق غير المقبولة تم اعتبارها، ربما، غير ذات بال. وكان بالإمكان أن تبقى دراسة المغالطات هامشية داخل المنطق؛ لأنها بالنسبة له تعتبر غريبة جداً وليس للاهتمام بها أي إيجابية. وفي هذا الصدد يعتبر التجديد الذي قام به هامبلن لدراسة المغالطات، واعترافه بمغالطات غير صورية محاولة تشابه ما قام به تولمن؛ لتوسيع المنطق الصوري وفتح لحقل الحِجَاج.

وتعتبر المغالطة عند هامبلن حجة غير صالحة، لكن لها مظهر الصلاحية: أي أنه يرى المغالطة، من تعريفها كحجة معيبة. ولقد أخذ كل أنواع المغالطات التي تم تصنيفها منذ أرسطو (في التفنيدات السفسطائية)؛ كالالتباس (l'équivoque)[39]، والإبهام (l'amphibologie)[40]، والخلط والتقسيم (la composition et la division)[41]، والعارض (l'accident)[42]، والمصادرة على المطلوب[43]، وتأكيد اللازم (l'affirmation du conséquent)، والسبب الخطأ (la fausse cause)، والسؤال المتعدد، ومجموعة حجج الاستدعاء التي تبدأ بـ (ad)؛ كالحجة باستخدام شخص الخصم

---

(39) ويقصد بالالتباس هو تغير معنى كلمة أو عبارة في داخل الحجة. (المترجم).

(40) ويقصد بها عادة جملة تحمل معنيين، أو أنها مبنية بصورة غير صحيحة، مثال ذلك هذه الجملة التي صادفتها، أثناء الترجمة، في مسودات أحد محاضر اجتماعات شعبة اللغة الفرنسية بجامعة الملك عبد العزيز: «ويرى الأعضاء أن يواصل الدكتور ... إشرافه على الرحلة العلمية للمبتعث... الذي سبق أن تتبع بحثه الميداني خلال إعداد رسالة الماجستير»، هنا من هو الذي سبق أن تتبع بحثه الميداني خلال إعداد رسالة الماجستير، هل قام الدكتور المشرف بعملية التتبع أم المبتعث قام بتتبع بحثه؟ (المترجم).

(41) الخلط ويقصد به تعميم خصائص الكل على الأجزاء. أما التقسيم فهو العكس، أي اعتبار أن ما يختص بالجزء يمكن تعميمه على الكل. (المترجم).

(42) العارض هو محاولة تطبيق قاعدة عامة على حالة خاصة جعلت منها بعض الشروط العرضية استثناء، كما يعني أيضاً استنتاج قاعدة عامة من موقف استثنائي. (المترجم).

(43) سبق الإشارة لحجة المصادرة على المطلوب، انظر الهامش 33، ص 77. (المترجم).

(ad hominum)[44]، والحجة باستخدام الصلاحية (ad verecundiam)[45]، والحجة باستخدام الشفقة (ad misericordiam)[46]، والحجة باستخدام الجهل بالشيء (ad ignorantiam)[47]. ولكن، ومع مهاجمته للتمييز بين المغالطات الصورية وغير الصورية، الذي يراه غير مناسب، فإن الاهتمام الأول لهامبلن لم يكن التصنيف، ولم يكن همه الرئيس وضع تصنيف للأنواع المختلفة من المغالطات، وإنما فهم الآلية، أو الآليات، التي يمكن للحجة أن تظهر من خلالها صالحة من دون أن تكون كذلك.

وفي هذا الصدد، يعتبر الجانب الأساسي في نظرية هامبلن في المغالطات هو أن هذه المغالطات لها بكل وضوح خصائص الحجج. وربما يكون هامبلن أول من حاول الاستفادة من كل نتائج هذه السمة في التعريف، وأن ينظر بجدية لطبيعة الحِجَاج داخل المغالطات. ولكي يمكن فهم الزيغ الموجود في المغالطة، وفهم كيف يمكن لحجة غير صالحة أن تأخذ مظهر الصلاحية؛ يجب قبل كل شيء فهم ما هي الحجة، والأهم من ذلك هو فهم ما يعطي الصلاحية للحِجَاج.

ويعرف هامبلن، بحدسه، الحجة وبطريقة اصطلاحية تماماً، فهي بالنسبة له عبارة عن مقدمات تطرح كدعامات لنتيجة ما. وما يشير إليه بوضوح، فيما يخص الحجة، هو أن العلاقة بين المقدمات والنتيجة ليست ذات طابع شرطي منطقي. وأن الحجة يمكن صياغتها

---

(44) ولكن ليس كل نوع من هذه الحجة هو هجوم تام على شخصية الخصم لذلك يمكن تقسيم هذه الحجة إلى ثلاثة أنواع هي: الشخصية البحتة (ad personam) المتعلقة بذات الخصم وقد تحتوي على شتائم أو مواضيع مزعجة له؛ لكنها غير مرتبطة بالحجج المقدمة في موضوع الحِجَاج. وهناك الظرفية (circumstantiœ) والتي تعني تقديم أحداث تتعلق بماضي ومعتقدات الخصم من أجل تجريده من المصداقية. والنوع الثالث يسمى «أنت كذلك!» (Tu quoque) وهي تعني إظهار التناقض بين أفعال الخصم وأقواله. ومثال ذلك من يدافع عن حقوق الإنسان ولكن ماضيه يشهد بانتهاك هذه الحقوق. انظر كذلك ما يلي في السطور القليلة القادمة حول ذات الموضوع. (المترجم).

(45) وتعني الحجة التي تأخذ مصداقيتها وقوتها من شخص له قيمة معنوية في المجتمع. ولكن من الصعب اعتبار هذه الحجة دائماً سفسطائية أو مغالطة فنحن عندما نريد التأكد من مرض نعتمد على تشخيص الطبيب؛ لأن له صلاحية علمية في هذا النطاق. كما أن ذلك يعتمد كثيراً على الثقافات فاستخدام أقوال الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، تعتبر حجة قوية لكل مسلم، وذلك يعود للصلاحية التي يمثلها الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، في المجتمع المسلم. (المترجم).

(46) وهي طريقة تستخدم لإقناع المتلقي من خلال استدعاء العواطف والأحاسيس وعدم تقديم أسباب عقلانية. ونجد الطلاب كثيراً ما يستخدمون هذه الحجة للحصول على درجات للنجاح، حيث يتحدثون عن التخرج والوظيفة والقبول في مستويات دراسية أخرى... لإثارة شفقة الأستاذ. (المترجم).

(47) وتعني استنباط نتيجة من مقدمة لعدم وجود ما يعارضها، ويوجد منها شكلان:

- لا يوجد دليل أن «س» خطأ، إذن «س» صحيحة.
- لا يوجد دليل على صحة «س»، إذن «س» خاطئة. (المترجم).

من دون أن تكون المقدمات بالضرورة ملزمة بها. بمعنى أنه، يمكن للحجج أن تكون صالحة أو غير صالحة؛ فالفكرة الرئيسة في نظرية هامبلن، هي أن صلاحية الحِجَاج لا تعتمد على معايير منطقية متعلقة بصحة المقدمات، أو بمعايير إبيستميك متعلقة بالتعرف على صحة المقدمات، وإنما تعتمد على معايير جدلية تتعلق بمدى قابليتها (acceptabilité). فالحِجَاج، كما يراه، ليس مسألة صواب أو انتساب لهذا الصواب، وإنما هو في آخر المطاف مسألة اعتقاد. وهذا الحال يرجع إلى هدف الإقناع الذي يبحث عنه الحِجَاج. فهذه الغاية الإقناعية مهمة جداً لصلاحية الحجج. بمعنى ما يمكن تسميته «القيمة الإقناعية» للحجة هي الأكثر مواءمة لصلاحيتها مما تمثله الحقيقة أو المدى المعرفي (cognitive) الفعلي لمقدماتها (لنتيجتها ولطرق الاستدلال الرابطة بين المقدمات والنتيجة). وهذا هو ما يفسر قيام المتحدث الذي يرغب بإقناع متلق ما باستخدام (أو على الأقل يكون نزّاعاً إلى ذلك) مقدمات يعلم أنها مقبولة من طرف السامع أو المتلقي، حتى وإن كانت هذه المقدمات غير صحيحة أو معروفة بأنها كذلك. (يتقاطع هامبلن هنا مع بيرلمان في أهمية التأقلم مع المتلقي في الحِجَاج).

يستخدم هامبلن مصطلح «الجدليات» للتعبير عن المعايير المتعلقة بقابلية الحجة، لأنها تنتج عن سياق التبادل بين المتكلم والمستمع، والذي يمثل الإطار الضروري لأي حجاج. والجدل، كما يفهمه هامبلن، له صلة بأنظمة قواعد أو اصطلاحات تحيط وتحكم الأنواع المختلفة من الحوارات. هذه القواعد والاصطلاحات، التي وظيفتها الإلزام، أو المنع، أو السماح بسلوكيات خطابية ما (Comportements discursifs)، تتعلق، إضافة للحِجَاج، بالعناصر السياقية للحوار، وبتعاقب أدوار الكلام. ولأن هذه المعايير مرتبطة بالكامل بأطراف الحوار وبسياق التبادل؛ فإن القابلية التي تمثل المفصل في الحِجَاج؛ تصبح ذات طبيعة متغيرة (variable).

وهكذا هامبلن لا يرى أن الجدل يلغي المنطق، لكنه يحتويه. ومن وجهة النظر هذه فإن قواعد المنطق يمكن اعتبارها اصطلاحات مقبولة من قبل المتحاورين. وبالطبع يؤدي المنطق دوراً ما في بعض الحجج، لكن حتى هذه الحجج ليست قابلة للتقييم وفقاً لدقتها الشكلية، وإنما وفقا لقابليتها. إن المنطق لا يمكن أن يكون حاكماً مطلقاً «موضوعياً» للحِجَاج، وذلك لأن صلاحية الحِجَاج مرتبطة بشكل أوسع بقبول المتحاورين. إن اشتراط صلاحية حجة ما يعني ببساطة: توضيح أن مقدماتها ونتيجتها وطرق الاستدلال كلها مقبولة. ولأن هامبلن، بهذه

الطريقة، يرفض كل نظرة توسعية للمنطق في تقييم صلاحية الحجج؛ فإنه يدعم فكرة عدم القدرة على وضع نظرية صورية (أي منطق رمزي Logique symbolique) للمغالطات؛ بل ويقول بعدم القدرة على تقديم تحليل صوري لمجملها. إلا أنه، من جهة أخرى، يقر بقدرة المنطق على تقديم معالجة ملائمة لبعض المغالطات. وذلك لأنه يعتقد بوجود ثلاثة أنواع مختلفة من المغالطات، هي: المغالطات الصورية، والمغالطات غير الصورية، والمغالطات اللغوية.

فالمغالطات الصورية هي تلك التي تخالف قواعد الاستدلال الاستنباطي (raisonnement déductif). وأول مجموعة فيها هي القياسات المصاغة بطريقة سيئة؛ لأنها لا تتقيد بقواعد التوزيع. ففي المثال:

كل المحامين حاصلون على شهادات

بعض الحاصلين على الشهادات غير أمينين

إذن بعض المحامين غير أمينين

هناك استدلال مغالِط أو مغالطة، إذ إنه من الممكن عدم وجود أي محام بين الحاصلين على الشهادات غير الأمينين. ومغالطة صورية أخرى هي إثبات اللازم (Affirmation du conséquent)، وهي شكل فاسد من صيغ المساومة التوافقية (Modus tolens). وهذه الأخيرة هي استدلال مكون من مقدمة أولى تمثل علاقة لزوم (P Q)، ومن مقدمة ثانية تنفي نتيجة (conséquent) المقدمة الأولى (~Q) ومن نتيجة تنفي سابقة (antécédent) المقدمة الأولى (~P). وهذه الاستدلال صالح تماماً، مثال ذلك:

عندما يكون عندي رشح، يكون عندي صداع

ليس عندي صداع إذن ليس عندي رشح[48]

---

(48) نستطيع أن نقدم مخططاً لصيغ المساومة التوافقية الصالحة كما يلي (نستخدم أ= P، ب=Q، نفي=~).

أ□ ب

(إذا لعب زيدان، فازت فرنسا)

نفي ب

(فرنسا لن تفوز)

إذاً نفي أ

(زيدان لن يلعب) (المترجم).

ما سبق عبارة عن استدلال لا يوجد في صيغته أي مشكلة. أما المساومة الفاسدة، أو إثبات اللازم، فمكون من مقدمة أولى تمثل علاقة اللزوم (P Q)، ومن مقدمة ثانية تثبت لازمة المقدمة الأولى (Q) ومن نتيجة تثبت سابق المقدمة الأولى (P). هنا، وعلى العكس من المساومة التوافقية، نحن أمام استدلال غير صالح. في مثال كالتالي:

عندما يكون عندي رشح، يكون عندي صداع

عندي صداع

لا يمكن أن استنبط إلا

إذن عندي رشح[49]

لأنه يمكن بكل تأكيد أن يعود الصداع لأسباب أخرى غير الرشح؛ كالإسراف في الشرب أو التدخين مثلا أو غير ذلك. فالمغالطات مثل التي سبقت غير صالحة؛ لأنها تخالف قواعد صورية. وعليه فإن المنطق الصوري قادر على تقديم معالجة تفسيرية لها.

وهذه ليست الحال بالنسبة لمجموعتي المغالطات الأخريين، إذ الأولى مكونة من مغالطات غير صورية؛ أي أن عدم صلاحيتها لا يعود إلى قصور منطقي. ونجد ذلك، وفقاً لهامبلن، في تلك التي صنفها أرسطو خارج اللغة، مثل المصادرة على المطلوب، الذي هو استدلال دائري لا تمثل النتيجة غير إعادة المحتوى الموجود في المقدمات، لكن بمصطلحات مختلفة (مثال: «إنه بريء، إذ إنه غير مذنب»). والنوع الثالث، والأخير، من المغالطات هو المغالطات اللغوية: وهي التي وصفها أرسطو بأنها غير مستقلة عن اللغة، مثل الإبهام (كتلك العبارات التي تحتمل معنيين مثل «خوف الآخر» والذي يمكن أن يفهم منها خوفنا من الآخر أو خوف الآخر منا). وهذه المغالطات (غير الصورية واللغوية) لا تخالف قواعد المنطق. وبالتالي يدافع هامبلن عن فكرة أن تحليل هذين النوعين لا يتعلق بالمنطق، وإنما بالجدل.

---

(49) نستطيع أن نقدم مخططاً لهذا الاستدلال كما يلي:

أ□ ب

(إذا لعب زيدان، فازت فرنسا)

ب

(فرنسا ستفوز)

إذاً أ

(زيدان سيلعب) (المترجم).

تطورت، بعد هامبلن، دراسات المغالطات، حتى أصبحت، منذ عشرين عاماً، موضوعا بحثياً مهما في دراسة الحِجَاج. وبالمقارنة مع هامبلن الذي اهتم بوضع نظرية في المغالطة، يحاول الباحثون، الذين أتوا بعده، دراسة أنواع المغالطات من أجل ذاتها. ولقد اهتموا أساساً بإشكاليتين هما: إشكالية تصنيف مجمل المغالطات، وإشكالية تعريف ونمذجة وتقييم المغالطات الخاصة.

لقد لاحظنا أن هامبلن لم يكن هدفه الرئيس تصنيف المغالطات، على الرغم من أن نقطة انطلاقه كانت التقسيمات السابقة، ووضعه للتمييز بين ثلاثة أنواع. وهذه هي حال الكثيرين من الباحثين الذين يقترحون للمغالطات تقسيمات متنافسة مرتكزة إلى مبادئ تمييز مختلفة.

إن التمييز بين المغالطات الصورية، وغير الصورية يبقى ملائماً في أعين الكثيرين، حيث غالباً ما يتم تناوله، ولو جزئياً، وفقاً لتمييز آخر بين الحجج الاستنباطية والحجج الاستقرائية. فنجد مثلاً، أن ويليام هالفيرسون (William Halverson 1984) يقابل بين المغالطات الصورية، التي هي عنده الحجج الاستنباطية، غير الصالحة بسبب عيب في شكلها، وبين المغالطات غير الصورية، التي يراها في الحجج الاستنباطية أو الاستقرائية التي تجد عدم صلاحيتها في أي سبب غير الشكل. ونجد تقسيمات أخرى مختلفة مثل ذلك الذي وضعه ريشارد بورتيل (Richard Purtill 1972)، وفيه قابل بين مغالطات الاستنباط ومغالطات الاستقراء، من خلال تمييزها عن أنواع أخرى من المغالطات.

وفي الواقع أن بعض التصنيفات ليست إلا تقسيمات فرعية. فموريس إنجل (Morris Engel 1980)، مثلاً، فرق بين ثلاثة أنواع من المغالطات غير الصورية، من دون أن يقوم بتعريفها من خلال مقابلتها بمغالطات صورية. وهذه الأنواع التي قدمها، هي: المغالطات المبهمة، وتتعلق بوضوح الحجة؛ ومغالطات القرينة (de présomption)، وتتعلق بما هو مدعى به في الحجة؛ وأخيراً مغالطات المواءمة، التي تتعلق بصلاحية الاستدلال المتبع في الحجة.

ونجد تقسيمات أخرى تقوم على معايير تمييز أخرى غير المقابلة صوري/غير صوري. فرالف جوهنسن وأنتوني بلير (Ralph Johnson, Anthony Blair 1983)، مثلاً، يقترحان تصنيفاً من خمسة أنواع للمغالطات، هي: المغالطات الأساسية، ومغالطات الإلهاء (de diversion)، ومغالطات التشخيص (de personnalisation)، والمغالطات اللغوية،

والمغالطات التهديدية (d'intimidation). وهكذا توسعت وازدادت تعقيدات تصنيفات المغالطات. فكاتب مثل ستيفان داونز (Stephen Downes 1996) يصنف ويتناول ثلاثة عشر نوعاً مختلفاً من المغالطات التي تجمع اثنتين وخمسين مغالطة (والمفارقة أنه يعتبرها جميعاً منطقية).

وتقسيمات المغالطات، كما نلاحظ، تتداخل في بعض النقاط، وهذا ينعكس حتى في التعريف، والتصنيف، والتقييم الذي يستحسن تقديمه لكل مغالطة. وهنا لن نتناول سوى مثال واحد، هو الحجة باستخدام شخصية الخصم (ad hominem).

إن جون لوك (John Locke)، الذي يعتبر أول من تناول هذه الحجة في كتابه: «مقال حول الفهم الإنساني»[50]، يضع لها تعريفاً محدداً هو أنها: التشكيك في مُعارِضٍ ما بدرجة تجعله يرفض تحمل النتيجة التي تقتضيها المقدمات التي يزعم إيمانه بها. بالنسبة للوك، تقوم هذه الحجة على تعارض منطقي، وعلى الرغم من عدم تناوله لهذه المسألة صراحة؛ إلا أنه من السهل ملاحظة اعتباره لها حجة صالحة تماماً. وفي الوقت الحالي توسعت هذه الحجة كثيراً: فتبعاً لأصلها اللغوي تعني كل حجاج يقوم على شخص الخصم. ومع ذلك فإنها في معناها الأكثر تداولاً، هي حجة ضد الإنسان: أي مهاجمة لشخصية الخصم أكثر منها مهاجمة لأفكاره وآرائه وحججه (لدرجة أن البعض، ومن أجل الاحتفاظ بشكل غير سلبي للحِجَاج القائم على الإنسان، يقترح، نظيراً له، حجة أخرى هي الحجة في مصلحة الشخص «ad laudatory»).

تتركز المناقشات الأساسية، فيما يتعلق بحجة استخدام شخصية الخصم، على مسألة طبيعتها المنطقية وخاصية المغالطة فيها، وتصنيفها. فالبعض، من بعد لوك، يعتبر هذه الحجة منطقية؛ لأنها تشير لتناقض منطقي. وعلى النقيض من ذلك، وكما لاحظنا في بعض تقسيمات المغالطات التي أشرنا إليها، تنتمي هذه الحجة صراحة أو ضمنيا للصنف غير الصوري. فبالنسبة لإنجل (1980) تنتمي الحجة باستخدام شخص الخصم لمغالطة لمواءمة، التي تمثل فرعاً من تصنيف المغالطات غير الصورية. ونجد ذات الأمر لدى هالفيرسون (1984). وفي تصنيف بورتيل (1972) وداونز (1996) تنتمي هذه الحجة

(50) نضع العنوان هنا للتوضيح. (المترجم).

John Locke, Essay Concerning Human Understanding.

للمغالطات غير الصورية ظاهرياً، حيث إن التقسيمين يحتويان على صنف مختص بالمغالطات الصورية. عندما نكتفي بتعريفها إجمالاً كهجوم على شخص الخصم، وليس على موقفه؛ فإن هذه الحجة تعتبر بوجه عام مغالطة. ومن أولئك الذين يرون هذا الرأي وارنر مورس[51] وميكائيل سكريفن[52] وبروس والر[53] وفرنسيس واتاناب دوير[54]وهاوارد كاهان[55] وديفيد كورناي مع رونالد مونسون[56]. ولكن يعتبر بعض الباحثين أن الهجوم على شخص الخصم ليس بالضرورة حجة غير صالحة. ويرى هذا الرأي، إذا لم يكن في الأمر تكتيك للإلهاء، ر.ج. فوجلين[57]، وبيتر مينكوس[58]، وترودي جوفييه[59]، وجون وودز مع دوجلاس والتون[60]. ومن جهته يقترح جيل جوتييه (1988a، 1988b)، مجموعة من ثلاثة معايير، هي: المصداقية والتبرير والمواءمة، والتي يمكن وفقاً لها التفريق بين الاستخدامات المشروعة والاستعمالات الخاصة للحجة باستخدام شخص الخصم.

والواقع أن مسألة معرفة كون هذه الحجة تمثل دائماً، أولا تمثل مغالطة، تتم معالجتها غالباً من خلال ارتباطها بمسألة طبيعتها الصورية. فبعض الباحثين يرى أن اعتبار بعض الحجج التي تستخدم شخصية الخصم مغالطة يعود حقيقة إلى أنها غير صالحة صورياً. وهكذا فترودي جوفييه (Trudy Govier 1988) وإيرفنج كوبي (Irving Copi 1987)، يعتبران الحجة المسماة «حجة الصيادين» مغالطة بسبب عدم وجود تماسك منطقي فيها. ووفقاً لهما، فإن الرد، الذي يوجهه الصيادون، إلى أولئك الذين يتهمونهم بالقسوة والهمجية تجاه الحيوانات، بقولهم إن هؤلاء الذين يتهمونهم هم ذاتهم مستهلكون للحم الحيوان، يقيم رابطاً غير مقنع بين الصيد واستهلاك اللحم. وفي مقابل ذلك يرى باحثون، مثل كورجان وكوربيرث (Corgan & Curbirth)، أن بعض الحجج باستخدام شخص الخصم صالحة تماماً، إذا كانت تحترم (من بين أشياء عديدة) ذات معيار التماسك المنطقي. فإثارة مسألة عدم الكفاءة، أو عدم

(51) (Warner Morse, 1973).
(52) (Michael Scriven, 1987).
(53)(Bruce Waller, 1988).
(54)(Francis Watanabe Dauer, 1989).
(55)(Howard Kahane, 1988).
(56)(David Cornay & Ronald Munson, 1990).
(57)(R. J. Fogelin, 1978).
(58)(Peter Minkus, 1980).
(59)(Trudy Govier, 1988).
(60)(John Woods & Douglas Walton, 1989,1992).

الأمانة، لسياسي من أجل معارضة ترشحه لمنصب انتخابي سيكون مناسباً جداً، كون الكفاءة والأمانة لدى المترشحين تعتبر صفات واجبة تتلاءم مع اتخاذ قرار انتخابهم أو عدمه للعمل العام.

إن جزءاً مهماً من البحث القائم حول موضوع الحجة باستخدام شخص الخصم، يركز على محاولة وضع تصنيف لها. والتصنيف الأقدم، والذي لا يزال الأكثر انتشاراً إلى اليوم، يميز بين ثلاثة أنواع من هذه الحجة، وهي: حجج شائنة تتوجه، بصورة مباشرة وغير مبررة، إلى شخص الخصم؛ وهناك حجج ظرفية، يتم فيها طرح بعض سمات شخصية الخصم، أو علاقته ببعض الظروف التي يستدعيها السياق، من أجل التقليل من قدره، وهناك الحجج المشار إليها بـ«أنت كذلك!»، وفيها يوضّح التناقض بين ما يقوله الخصم وبين سلوكه في الحياة[61]. وهذا التصنيف يعتمده باحثون كثر، منهم روبير بوم[62]، وبارلي هرلي[63]، وستيفان باركر[64]، وروبير شورشيل[65]، وفنسان باري مع دوجلاس سوشيو[66]، ودوجلاس والتون[67]، وستيفان داونز[68].

وبعض الباحثين، غير الراضين عن هذا التقسيم، قدموا تصنيفات مختلفة. فجون وودز ودوجلاس والتون (1989.1992)، يقدمان أربعة أنواع من هذه الحجة تتمحور حول عدم التماسك المنطقي (كالدفاع عن موقفين متناقضين مثلاً)، أو حول عدم التماسك في التأكيد (كتأكيد نفي فعل يجري تنفيذه في ذات الوقت: أنا لا أقول شيئاً الآن)، أو حول عدم التماسك الأخلاقي (Praxiologique) (وهو التناقض بين ما يقال وما يفعل)، أو حول عدم التماسك الأدبي-الأخلاقي (التعارض بين القول بما يجب أن يحدث وما هو حادث فعلاً). من جهته يقترح جيل جوتييه (1995) التمييز بين ثلاثة أنواع من هذه الحجة، هي: الحجج المنطقية، التي تعني مهاجمة شخص الخصم بسبب التناقض بين موقفين أو فرضيتين يتبناهما أو قد يرغب بتبنيهما أو أنه قد يكون مرغماً على تبنيهما؛ والحجج الظرفية، التي تتمثل في التشكيك في المعارض بسبب عدم التماسك المفترض بين موقفه

(61) يتوافق هذا مع القول الشائع «انظر من يتكلم» عندما يصدر من شخص يناقض فعله قوله. (المترجم).
(62)(Robert Baum, 1975).
(63) (Parly Hurly, 1982).
(64)(Stephen Barker, 1985).
(65)(Robert Churchill, 1986).
(66)(Vincent Barry & Douglas Soccio, 1988).
(67)(Douglas Walton, 1984, 1987,1989a, 1989b, 1992).
(68)(Stephen Downes, 1996).

المعلن وبعض السمات في شخصيته، أو في بيئته؛ وأخيراً، الحجج الشخصية، التي تتمثل في الهجوم المباشر على الخصم من دون التصريح بعدم التماسك الصوري أو النفعي لديه.

المنطق غير الصوري (La logique informelle)

في خضم دراسات المغالطات تشكّل حقل بحثي أكثر اتساعا وشمولاً، هو المنطق غير الصوري (الذي خصصت له الدورية العلمية المسماة «المنطق غير الصوري»(69). على إثر ملاحظة هامبلن بمدى عدم قدرة المنطق الصوري على التعامل مع المغالطات، قام مجموعة من الباحثين بالبحث عن نظام استدلال، أو ربط للأفكار، أقل تعقيداً وأفضل لفهم الحِجَاج «الطبيعي»؛ أي ذلك الذي يكون في الحياة اليومية. والمنطق الصوري، كما وصف تشكّله رالف جونسن وانتوني بلير (1978)، تكوّن، شيئاً فشيئاً، عندما كانت هناك الرغبة بتوسيع التحليل الأولي لموضوع المغالطات ليشمل كل الحجج، وليس فقط تلك التي تمثل صلاحيتها مشكلة في التعامل. فهذا الحقل البحثي نتج إذن عن حركة توسيع لدراسة المغالطات لتشمل الحِجَاج بأسره.

ووفقاً لويني جرينان (Wayne Grennan 1997)، يحتوي المنطق الصوري على ثلاثة عيوب جوهرية عند تحليل الحِجَاج. فهو مركز جداً على الاستنتاج (ما يسميه جرينان بالاستنتاجية، déductivisme)، ولا يثير مسألة صلاحية المقدمات، ويتعامل مع الحجج الاستقرائية والحجج المادية ككمية مهملة. ولتلافي الثغرات فيه، يحاول المنطق غير الصوري التطور على أربع جبهات بحثية رئيسة هي: جبهة اللغة، وجبهة الحوار، وجبهة التمثيل التخطيطي (schématisation)، وجبهة التقييم. وكما يرى رونالد منسون (Ronald Munson 1976)، وأكثر منه ر.ج. فوجلين (R.J. Fogelin, 1978)؛ فإن الحِجَاج نشاط لغوي بالدرجة الأولى: فهو أحد الأفعال المتاح لنا القيام بها بواسطة اللغة، وهو أيضاً فعل يرتبط إنجازه باستخدام اللغة. من هذا المنطلق، النفعي تماماً، فإن المنطق الصوري، الذي لا يستطيع التعامل إلا مع بعض النماذج من الحِجَاج؛ غير كاف لتحليل الحجج، ويجب أن يكمله منطق غير صوري مكرس لدراسة استخدام الحِجَاج في اللغة. وهكذا اختبر فوجلين بعض العناصر اللغوية المستعملة في الحِجَاج، كالأفعال الإنجازية الحِجَاجية (Les performatifs argumentatifs)، التي تدلل على صد سلوك حجاجي،

(69) نضع اسم الدورية هنا لمزيد من الإيضاح (Informal Logic). (المترجم).

عندما يستخدم الفعل في المضارع مع ضمير المتكلم (مثل «أفترض أن»، و«أزعم أن»، و«أقبل أن»، و«أختم بأن»)، وكالروابط الضامنة، التي بواسطتها تتم عمليات استنباط حجاجي (مثل «إذن»، و«لأن»، و«بما أن»).

ونجد دوجلاس والتون (1989b)، الذي يتخذ أيضاً وبإصرار بعداً نفعياً، يقترح النظر إلى الحجة في سياق تبادل حواري تفاعلي. فبعد تمييزه بين عدة أنواع من الحوارات (الصراع، المواجهة، الإقناع، البحث، المفاوضة، نشر المعلومات، الحث على الفعل والتربية)، يعّرف أربع مراحل متتالية لهذه الحوارات هي: مرحلة البدء (stade d'ouverture)، ومرحلة المواجهة (stade de confrontation)، ومرحلة الحِجَاج الفعلي (stade d'argumentation)، ثم مرحلة الإنهاء (stade de clôture). وعلى ضوء هذا النموذج يعيد والتون فحص أنواع مختلفة من الحجج، كالاستنباط، وبعض المغالطات كمخاطبة العواطف، والحجة باستخدام شخص الخصم، والحجة باستخدام صلاحية الشخص (ad verecumdiam).

وللمنطق غير الصوري اهتمامان أساسيان (مرتبطان غالباً) هما: التمثيل التخطيطي والتقييم. فباحثون مثل جون نولت (John Nolt 1984) على سبيل المثال، وفي نطاق اهتمام استخدامي، يبشر منذ ذلك الوقت بظهور التفكير النقدي، يقترحون تمثيلاً تخطيطياً للحِجَاج من خلال الاستعانة بالأدوات المفهومية للعوالم الممكنة[70]. وهناك سببان يبرران تجميع مثل هذه الرسومات التخطيطية للحجج. الأول: أنه ليست كل الحجج سهلة وبسيطة وإنما صعبة ومتداخلة. ثم إنه، خاصة إذا كان صحيحاً أن صياغة الحجج تتطلب التعبير بالألفاظ (énoncés)؛ فإن العلاقة ليست دائماً ثابتة بينها: ففي أحيان كثيرة يكون من الصعب التفريق وعزل الحجة المعبر عنها في سلسلة من الألفاظ. هنا يصبح امتلاك جدول تفسيري يسمح باستخراج الحجج من كتلة الألفاظ الممزوجة ببعضها أمراً إيجابياً.

(70) يقصد بمنطق العوالم الممكنة (mondes possibles) لحظة إنتاج وتلقي القول. فعبارة ما لا يمكن وصفها بأنها صحيحة أو غير صحيحة بالمطلق، ولكنها قد تكون كذلك في عالم لحظة الإنتاج أو عالم لحظة التلقي. وهذا من المصطلحات التي ارتكز إليها إيكو لتحديد مفهوم قراءة النص وآلياته ليشير إلى العالم الذي يتخيله القارئ أثناء تلقيه للنص. لمزيد من الفائدة حول هذا المفهوم في النقد يمكن الرجوع إلى:

-Umberto Eco: La structure absente, introduction à la recherche sémiotique, Mercure de France, Paris, 1984.

-Umberto Eco: Lectore in fibula ou la coopération interprétative dans les textes narratifs, Grasset et Fasquelle, Paris, 1985 (المترجم).

يعود الفضل في قيام مجموعة باحثين بوضع أنظمة تقييم للحجج إلى ذهنية إجرائية متشابهة. فنظام وين جرينان (1997) عبارة عن توليفة من خمسة عناصر: منهج وصف لبنية الحجج، وإستراتيجية تقييم للاستنباطات التي تحكمها، وإستراتيجية تقييم للمقدمات، وإستراتيجية تقييم للجودة الكلية للحجج، وأخيراً طريقة صورية تمزج هذه الأنواع المختلفة من الإستراتيجيات.

إن المنطق الصوري يغطي اليوم حقولاً بحثية تتجاوز الإطار المحدد للحِجَاج. ونجد في فرد فيلدمان (Fred Feldman 1986) مثالا على ذلك، فقد وضع منطقاً غير صوريٍّ للواجب الأخلاقي طور من خلاله نظرية أخلاقية نفعية تتمحور حول المفاهيم المختلفة لما يجب الالتزام به (l'obligation).

التفكير النقدي (La pensée critique)

أصبحت المغالطات والمنطق غير الصوري، في جزء كبير منهما، أدوات فيما يسمى «التفكير النقدي»، أو ما يطلق عليه أحياناً «الاستدلال النقدي» أو «التفكير العقلاني»، والذي يمثل اليوم موضوعاً كُتب عنه الكثير، وتوسع في اتجاهات متعددة، كلها مثيرة للاهتمام (من أجل فكرة عامة عن الموضوع، انظر: جيريس كاسيل وروبير كونجلوتون)[71].

وإن كانت بعض الدراسات في التفكير النقدي قد أخذت منطلقاً منطقياً جداً، كأعمال جون بينيت[72]، و ج.ب. سيديربلوم مع د.و. بولسن[73]، فان غالبيتها تتمحور حول الحِجَاج. ولقد كان المنطلق الرئيس للتفكير النقدي تعليمياً. وكما أشار لذلك ريشار بول (Richard Paul 1990) في حديثه عن تاريخه، بدأ التفكير النقدي باستخدامه لهدف تربوي هو: إكساب الطلاب الحس النقدي وتطوير مهارات التفكير لديهم. وهو بهذا يعني، من جهة، مقاومة نزعة القبول بما هو ثابت ومقرر، ومن جهة أخرى، الإبداعية وتنمية التفكير الخلاق. إن التفكير النقدي، على الأقل في بعض البحوث، له صفة معيارية، حيث إنه يقوم على ما يمكن تسميته «مبدأ الارتياب»، الذي يقول إن اللغة خادعة وإن التركيبة الاجتماعية تساعد على الاستدراج الذي لا يملك الأفراد السلاح لمواجهته.

(71)(Jeris Cassel & Robert Congleton, 1993).
(72)(John Bennett, 1980).
(73)(J. B. Cederblom & D. W. Paulsen, 1982).

وأكثر الدراسات منهجية في التفكير النقدي تتناول عناصر من المنطق ومن الحِجَاج، مثل الاستدلالات الاستنباطية والاستقرائية والمغالطات، ومن ثم تطبيقها على مواقف خطابية حقيقية، مع اقتراح تمرينات في موضوعاتها. ويمكن أن نذكر من هذه الدراسات ما كتبته ليندا ليتل مع انجريد جرينبيرج[74]، ودراسات فرانسيس واتاناب دوير[75]، وفريديريك ليتل مع ليو جروارك وكريستوفر تيندال[76]، وديفيد هيتشكوك[77].

وهناك بحوث أكثر تحديداً مثل دراسات باتريسيا كينج مع كارين كيتشنر (Patricia King & Karen Kitchener 1994)، حيث يهتمان، بشكل خاص، بالحكم المنعكس (الذي يجب إظهاره عندما لا يكون بين أيدينا كل المعطيات أو المعلومات المتعلقة بقضية ما). ومن جهته يقترح فنسان روجيرو (Vincent Ruggiero 1990) دليلاً يحث على تفضيل العقل ضد اللاعقلانية – المشاعر les sentiments)- التي تحمل مقاومة التغيير، ونزعة التقيد بالأعراف، والتبسيطية، والأحكام النمطية، في حين أن ديان هالبيرن (Diane Halperne 1984) تتناول التفكير النقدي في علاقته مع المعرفة، ويظهر بالتالي مداه الإبيستيمولوجي. أما فريدريك ليتل (1980)؛ فإنه يربط بين التفكير النقدي وعملية اتخاذ القرار. وبما أن التفكير النقدي له هدف تربوي بالأساس، فليس من المستغرب أن الكثير من الكتب يرمى لتعليمه، ومن المهتمين بذلك جون مكبيك[78]، وستيفان نوريس مع وروبيرت اينيس[79]، وهاري سيجل[80]، وجيمس ستيس[81] من بين آخرين كثر.

الحِجَاج التواصلي (L'argumentation communicationnelle)

بعض الدراسات المعاصرة في الحِجَاج تحاول تناوله من منظور تواصلي: إما أن الحِجَاج، أو بالأحرى نقله، محدد بالسياق التواصلي، وإما أن يتم تحليله في صيغ التطبيق الخاصة التي يتخذها داخل الممارسات المختلفة للتواصل العام.

(74)(Linda Little & Ingrid Greenberg, 1991).
(75)(Francis Watanabe Dauer, 1989).
(76)(Frederick Little, Leo Groarke & Christopher Tindale, 1989).
(77)(David Hitchcock, 1983).
(78)(John Mcpeck, 1990).
(79)(Stephen Norris & Robert Ennis, 1989).
(80)(Harvey Siegel, 1988).
(81)(James Stice, 1987).

يمكن اعتبار باربارا وارنيش مع إدوارد انش (Barbara Warnich & Edward Inch 1994) وفيرنون جونسون (Vernon Jenson 1981) مثالين جيدين للطريقة الأولى في ربط الحِجَاج بالتواصل. فهما يعرفان الحجة أساساً، وفقاً لموقف اختلاف ما: فبالنسبة لهما، تظهر الحجة وتستخدم عندما يوجد اختلاف بين موقفين محتملين. ويحددان أربعة عناصر سياقية تتعلق بهذا الموقف الاختلافي، وهي: الثقافة، وحقول الحِجَاج (تلك ذاتها التي ذكرها تولمن)، والمناسبة، والتأثير الأخلاقي. وبطريقة مشابهة، نجد أن جونسن قد اهتم بمجال تطبيق خاص في الحِجَاج، هو المجابهة (Débat). وقد قاده ذلك إلى أن يدمج بعض العوامل الأساسية؛ كالمصداقية والتفنيد في تحليل الحجج.

أما بالنسبة لتحليل الحِجَاج الخاص بممارسات التواصل العام، فيمكن تناوله إما بصورة غير مباشرة، كما لدى ريشارد ريك مع مالكولم سيلارز (Richard Rieke & Malcolm Sillars 1984)، أو بصورة مباشرة وصريحة، كما لدى هاوارد كاهان (Howard Kahane 1988) وكذلك ميكائيل سبرول (Michael Sproul 1980). فريك وسيلارز يعرّفان الحجة كأداة لاتخاذ القرار في مجالات مختلفة: في القانون، وفي مجال التعليم، وفي السياسة، وفي الدين، وفي الأعمال التجارية. والبعد الجوهري الذي يشمل كل هذه المجالات، هو التواصل. فمن الواضح أن الحِجَاج السياسي، مثلاً، يتعلق أساساً بالتواصل السياسي. أما كاهان، فيحاول تحليل الاستخدام المعاصر للعقل في الحياة اليومية، ولهذا قام بفحص كيفية استخدام الاستنباطات الصورية المقبولة والمغالطات في الإعلان والعمل الصحفي. ومن جهته ميز سبرول بين ثلاثة أنواع كبيرة من الحجج، هي: الوصف، والتفسير، والتقييم. ونجد أنه هو أيضا يدرس الحِجَاج في الممارسات المختلفة للتواصل العام والاجتماعي: في العلوم، والآداب، والأغنية، والتواصل السياسي مثلما في الإعلان والصحافة.

إن دراسة المغالطات والمنطق غير الصوري والتفكير النقدي والحِجَاج التواصلي سمحت، حتى الآن بشكل أساسي، بفحص الحجج أو الطرق الخاصة في الحِجَاج. وبعض هذه التحليلات الدقيقة، هي بالتأكيد صدى لتصور واضح نوعاً ما للحِجَاج، أو أنها تتصل بإطار مفهومي شبه واضح، ولكنها ليست مطروحة كمعرفة مجملة ومنظمة ومنسقة. ففي الوسط الأنجلوفوني لم تظهر المحاولات الأولى لوضع نظريات حقيقية في الحِجَاج إلا منذ فترة قصيرة. والإشارة الأكثر وضوحاً، لمثل هذا المشروع، يمكن أن نجدها عند أي. م.

بارث و ج. ل. مارتنز (E. M. Barth & J. L. Martens 1982)، وذلك من خلال ما نشر عن المؤتمر الذي عقد في جرونينغ (Groningue) عام 1978، حيث تم دعوة باحثين من المهتمين بالحِجَاج، ولكن من مجالات عديدة ومختلفة، لتبادل الآراء بهدف الخروج بنظرة شاملة مشتركة. فبالنسبة للكاتبين كان الهدف هو دراسة ما إذا كان الحِجَاج قادراً على أن يبرز كتخصص محدد وكيفية ذلك، وهو ما سيؤدي إلى إمكان القيام بمحاولة للتنظير.

من ذلك الحين تم تطوير بعض النظريات، وكانت الأكثر تقدماً بينها هي تلك التي طورها ترودي جوفييه[82]، ودوجلاس والتون[83]، وشارل ويلار[84]، وفرانس ايميرن مع روب جروتندورست[85]، ومع تجارك كروتر[86]. وهذه النظريات في الحِجَاج تحتوي على بعض الاختلافات، بل وبعض نقاط التضارب. لكنها جميعاً تتقاسم صفتين رئيستين هما: أنها جميعاً تتناول الحِجَاج والحجة من منظور تداولي ووفقاً لسياق تواصلي، وأنها جميعاً معيارية، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة.

في هذه النظريات الأربع تتم دراسة الحِجَاج بالنسبة لسياق التلفظ، وتدرس الحجة وفقاً لاستخدامها. وجهة النظر هذه يمكن تسميتها «تداولية»، في مقابل وجهة النظر «الدلالية» (sémantique)، التي تقول باختزال تحليل الحِجَاج والحجة في فحص عناصر القضية (Propositions) (بالمعنى المنطقي للمصطلح)، ولقيمة الصواب فيهما. وإذا نظرنا في موضوع هذه النظريات نجد أنه ليس عبارة عن حجج مجردة وإنما حجج طبيعية (naturels) أو عملية (pratiques)، أي حجج مصاغة كما هي في الحياة اليومية. وفي هذا فإنها تتبع بوضوح خط المنطق غير الصوري والتفكير النقدي، وفي الوقت ذاته فهي تطور وتنظم دراسات الحِجَاج التواصلي.

من جهة أخرى، تحتوي كل النظريات الأربع على جزء معياري واضح جداً. فهي لا تهدف فقط إلى تقسيم الحجج، الصالح منها وغير الصالح، وإنما طورت كذلك وفقاً لتصور اجتماعي وسياسي ومعرفي أعلى، أو بكلمة أشمل، تواصلي.

---

(82)(Trudy Govier, 1988,1987).
(83)(Douglas Walton, 1996, 1989).
(84)(Charles Willard, 1989, 1983).
(85)(Frans Eemeren & Rob Grootendorst, 1992, 1983).
(86)(Tjark Kruiter, 1987).

جوفييه: نظرية عملية (Une théorie pratique)

يعتبر جوفييه أكثر من اهتم بتحديد وتبرير الوضع النظري لنظريته «العملية» في الحِجَاج (العنوان الفرعي لأحد كتابيه المطروحة فيهما نظريته كان: دراسة عملية للحجه[87]. فهو يضعها في مقابل ثلاث نظريات أو مقاربات منافسة: المقاربة الصورية، القائلة بأن المنطق الصوري يكفي لفهم الحجج؛ والمقاربة الاستنباطية القائلة بأن الحجج الصالحة الوحيدة هي التي تكون مقدماتها صحيحة والتي يصل إلى نتائجها بالاستنباط؛ وأخيراً المقاربة الطيفية (l'approche spectrale)، القائلة بأن قوة الاستنباط بين المقدمات والنتيجة متغيرة، وبالتالي توجد أنواع من الحجج غير الحجج الاستنباطية.

يعّرف جوفييه الحجة، بطريقة تقليديه تماماً؛ كمجموعة من القضايا مبيّنة في مقدمات ونتائج، وظيفتها تبريرية وهدفها إقناعي. وقد وضّح ميزتين أخريين ملازمتين للحجة، وهما: صفة العقلانية وطبيعتها غير العنفية. فالحجة، بالنسبة له، تتميز باعتمادها على العقل وعلى الأولوية المعطاة للنقاش في إدارة الخلاف. فالحِجَاج، كما يراه، يمثل شكلاً خاصاً من النشاط التواصلي (يميزه عن غيره من استخدامات اللغة؛ مثل السؤال والوصف، وبصفة خاصة الشرح).

ولقد توقف جوفييه بصورة خاصة عند مسألة صلاحية الحجة، ووفقاً له فإن الحجة، لكي تكون صالحة، عليها الخضوع لثلاثة شروط مختلفة هي: شرط القابلية، وشرط المواءمة (la pertinence)، وشرط التبرير[88]. فشرط القابلية يلزم بأن مقدمات حجة ما يجب أن تكون لها صفة القابلية؛ وشرط المواءمة يقضي بأن تكون المقدمات مرتبطة بالنتيجة؛ وشرط التبرير يقضي بأن تطرح المقدمات أساساً أو أُسساً كافية من أجل القبول العقلاني بالنتيجة.

ويضع جوفييه لكل شرط من هذه الشروط مجموعة من الخصائص. ولهذا يضع قائمة من المعايير الضامنة لقابلية المقدمة. فباستثناء حالة عدم قبول المقدمة وإنما افتراضها، مثلما يحدث في الحجة الشرطية أو قياس الخُلف (réduction par l'absurde)، ويعتقد

(87) مكتوب في النص باللغة الإنجليزية: A practical Study of Argument. (المترجم).

(88) يسميها بالإنجليزي (ARG conditions). وقد وضعها المؤلفان في ثنايا النص بين قوسين ونوردها هنا من أجل الإيضاح. (المترجم).

جوفييه أن المقدمة للحجة تكون مقبولة، تبعا للسياقات المحتملة المختلفة: إذا كانت صحتها مقررة من خلال حجة سابقة (تعتبر عندها كحجة فرعية للحجة)، وإذا كانت تمثل حقيقة ضرورية (تحليلية)، وإذا كانت تتعلق بالمعرفة المشتركة، وإذا تم اختبارها بواسطة مصداقية ذلك الذي يعرضها، أو إذا كانت تعتمد على صلاحية مناسبة (autorité ap-propriée). في مقابل ذلك سمحت هذه المعايير لجوفييه بوضع الشروط التي يمكن أن تجعل من المقدمات غير مقبولة: فمقدمة ما تكون غير مقبولة إذا كانت خطأ؛ ومجموعة مقدمات تكون غير مقبولة إذا لم تكن متماسكة (أي إذا كان ينتج عنها تناقض). والمقدمة تكون غير مقبولة عندما ترتكز إلى افتراض غير صحيح أو مختلف عليه، وتكون غير مقبولة إذا لم يقبل صحتها شخص لا يقتنع مباشرة بالنتيجة التي تبررها، وأخيراً، تكون المقدمة غير مقبولة إذا كانت أقل قبولاً من النتيجة ذاتها.

ومن جهة أخرى يميز جوفييه بين أربعة أنواع من المواءمة: أولاً المواءمة الإيجابية، وذلك عندما تكون صحة النتيجة مرتبطة بصحة المقدمة أو المقدمات، وثانياً المواءمة السلبية، وذلك عندما يكون عدم صحة النتيجة مرتبطاً بصحة المقدمة أو المقدمات، وثالثاً المواءمة المعيارية، وذلك عندما تكون صحة أو عدم صحة نتيجة تقييم ما في داخلها مرتبطة بصحة المقدمة أو المقدمات المتعلقة بالقرائن، وأخيراً المواءمة الباطلة، وذلك عندما تكون لا صحة النتيجة ولا خطؤها مرتبطين بصحة المقدمة أو المقدمات. وتبعاً لهذه الأنواع المختلفة للمواءمات، حدد جوفييه بعض المغالطات، كالحجة باستخدام شخص الخصم، وحجة التجريم بالتواطؤ (culpabilité par association)، وحجة الجهل بالأمر.

أما فيما يتعلق بشرط التبرير؛ فإن جوفييه يستعرض سريعاً المبادئ والقواعد التقليدية المقررة في موضوع الاستدلال الاستنباطي، والاستدلال بالمماثلة، والاستدلال الاستقرائي. ويستنبط من ذلك خاصية لبعض المغالطات الأخرى، مثل عدم توزيع الحد الأوسط (non dis-tribution du moyen terme)، والبرهان ذي الحدين الخطأ (faux dilemme)، وتأكيد اللازم (affirmation du conséquent)، وإنكار السابق (dénégation de l'antécédent)، والمماثلة الخطأ (la fausse analogie) والسؤال المركب (la question complexe).

والتون: نظرية حوارية (Une théorie dialogique)

إضافة إلى قيامه بدراسات عن المغالطات بالتعاون مع جون وودز، يقترح دوقلاس والتون نظرية شاملة للحِجَاج يمكن وصفها بـ«الحوارية». ذلك أنه بتناوله للحِجَاج من منظوري المنطق غير الصوري والتفكير النقدي يحدده في الأساس وفقاً لسياق التبادل الذي يتم فيه.

ومن جهة أخرى، يقترح والتون تعريفاً للحجة مرتبطاً مباشرة بالحوار. فالحجة، بالنسبة له، قضية مواءمة لتأسيس نتيجةٍ تبعاً لإجراء خاص بحوار عقلاني[89]. ولقد قارن هو ذاته هذا التعريف الذي يسميه «تداولي» (العنوان الفرعي لكتابه في عام 1996 كان: نظرية تداولية[90] بالتعريف الدلالي الاصطلاحي للحجة كترابط صوري لمقدمات معروضة بهدف إثبات نتيجة ما. ويرى والتون أن هذا التصور الدلالي مختزل. فهو لا يلقي الضوء على أشياء كثيرة منها: أن الحجج يمكن أن تستخدم للتفنيد والتشكيك في الآراء بالقدر ذاته الذي تستخدم فيه لتأسيسها، وأنه توجد حجج شرطية وغير مباشرة، وأن الحجج يمكن أن تندمج فيما بينها في تنسيق نصي كبير. فالمركب الأساسي للحجة، كما يرى والتون، ليس خاصيتها التبريرية، لكن استخدامها في سياق حواري- وهنا يرد بصورة مباشرة على هامبلن وجوفييه.

ومثل تولمن، لا يحاول والتون إقامة نظرية في الحِجَاج مضادة للمنطق؛ بل على العكس من ذلك، فهو يرى أن الحِجَاج يتعلق بتداولية منطقية (pragmatique logique)؛ وأن الحجة هي بالطبع مجموعة من القضايا، ولكنها مستخدمة في موقف تبادل خطابي. ويمكن القول بأن مشروع والتون هو محاولة اتخاذ المنطق مرجعاً في السياق.

ويعتقد والتون حقيقة بوجود أنواع مختلفة من الحوارات: فهناك الصراع الشخصي، والمجابهات العامة، والبحث المشترك، والتفاوض، والبحث عن المعلومات، و التحري الدقيق، وغيرها من الحوارات التي تتمايز بواسطة سياقها الذي تتحقق فيه، والمنهج، أو إطار التبادل، الذي تفرضه، أو الهدف المنشود. فالمجابهة العامة، مثلاً، تنتج من عدم اتفاق مواقف محتملة حول قضية ما، مما يقود إلى المجابهة، وهدفها هو إقناع المتلقي.

---

(89) يضعها المؤلفان في ثنايا النص بين قوسين باللغة الإنجليزية (appropriate procedures of reasonable dialogue). ونوردها هنا للتوضيح. (المترجم).

(90) (A Pragmatic Theory).

في حين أن التفاوض ينتج عن اختلاف حول المكاسب، مما يعني البدء بالمساومة والانتهاء بالتسوية. ويرى والتون أن أي حوار، مهما كان نوعه، يسير وفق أربع مراحل متتالية، هي: مرحلة البداية، ومرحلة المواجهة، ومرحلة الحِجَاج، ثم مرحلة الإنهاء. ولكل مرحلة من هذه المراحل قواعدها الخاصة بها. ففي مرحلة البداية، مثلاً، هناك قواعد تحدد أنواع التعبير المقبول (أسئلة، تأكيد وغيرها)، وتحكم التبادل الحواري (تبادل الكلام، ردود الفعل المسموح بها وما شابه ذلك). إضافة إلى ذلك، فهناك قواعد حجاج عامة، تفرض نفسها على المراحل الأربع، وهي ثلاثة أنواع: قواعد المواءمة، وتتعلق بما يجب اعتباره حجة، وقواعد التعاون؛ كواجب الرد عن سؤال مطروح، وقواعد تقديم المعلومة، كواجب تقديم المعلومات الضرورية للتبادل من دون زيادة غير مطلوبة.

وعلى الرغم من أن هذه القواعد ذات طبيعة إجرائية إلا أنها تتضمن نموذجاً موحداً للحِجَاج، من حيث إنها تحدد شروطه للحوار المثالي. ولهذا فإن نظرية والتون معيارية. فهي تقود إلى تقسيم الحجج إلى مقبولة وغير مقبولة وفق الحوار النموذج. فالحجة غير الصالحة هي تلك التي تكسر قاعدة المواءمة، أو قاعدة التعاون، أو قاعدة تقديم المعلومة. ويقابل القواعد الإيجابية التي يوردها والتون، قواعد سلبية، تسمح بتحديد الأخطاء ونواقص الحِجَاج. ولقد اجتهد هو شخصياً في تعريف المغالطة تبعاً لهذه القواعد السلبية. فهو يفسر مثلاً خاصية المغالطة لبعض الحجج باستخدام شخص الخصم وكذا الحجة بالصلاحية بعدم المواءمة.

ويلار: نظرية معارِضة (Une théorie oppositionnelle)

يمكن القول، من دون جدال، بأن نظرية شارل ويلار هي النظرية التي تبدأ بأعلى سقف طموح في الاستكشاف. فالحجة بالنسبة له مفهوم متعدد الفروع وينتمي منذ القدم إلى مجموعة حقول مختلفة ومتعددة، سواء كان ذلك ضمناً أو صراحة. فنجدها في الفلسفة، وفي علم اجتماع العلوم، وفي علم اجتماع المعرفة، وفي المنطق غير الصوري، وفي الإبستيمولوجيا، وفي الأخلاق، وفي علم السياسة، وفي التفكير النقدي. إن نظرية ويلار (أو بالأحرى نظريته العليا métathéorie) لها موضوعان: أولاً، ومن منظور اجتماعي، كيف يمكن للحِجَاج أن يبني العلاقات بين الأفراد والجماعات، وثانياً، ومن منظور إبيستيمولوجي، ما الطريقة التي ينظم بها المعارف. وبسبب توسع مشروع ويلار فإن موقفه نظري أكثر منه تجريبياً وتقنياً. فاهتمامه التحليلي يتركز على البناء الاجتماعي للحِجَاج، ويتبعه هم نقدي يتركز على شروط

وإمكانيات الخطاب العام الناجح (discours public réussi). لهذا فإنه يضع إطاراً نظرياً واسعاً حول التفاعلية (interactionnisme) والبنائية (constructivisme)، مما يقوده إلى عدم الاهتمام كثيراً بالحِجَاج والحجج، كما هما، في مقابل نتائجهما الإبيستميك (épistémique) على العقلانية مثلاً، أو نتائجها السياسية؛ كممارسة الحرية.

ومع ذلك فإن ويلار يقدم بعض التعريفات للحجة وبعض خصائص المغالطات. فهو يعرف الحجة كشكل من التفاعل يتخذ فيه المشاركون مواقف متعارضة. وتتخذ الحجة مكانها، كما يعتقد، في سياق انشقاق (dissension) وعدم توافق، وبالتالي نقاش جدلي ومجابهة: بهذا فإن المصطلح «معارِضة» ملائم جداً لوصف نظريته. فمصطلح «حجة»، في حقيقة الأمر، كما يتصوره ويلار، يتألف من المعنيين اللذين تحملهما اللغة الإنجليزية، وهما: أولاً، الاستدلال المستخدم لهدف إقناعي (وهو الوحيد الذي نجده في اللغة الفرنسية)، وثانياً، النزاع وعدم الاتفاق. والحِجَاج، بالنسبة لويلار عبارة عن مواجهة بين وجهتي نظر متعارضتين، وفي الوقت ذاته هو التبريرات، أو البراهين المقدمة لإثبات وجهات النظر هذه. وفي هذا الصدد يوجد لدى ويلار بعض التوجه من البلاغة نحو الديالكيتك، أو بالأحرى نوع من دمج الديالكتيك في البلاغة.

وتتضح السمة التداولية لنظرية ويلار جيداً في ضوء الدقة التي ينتهجها في تعريفه للحجة. فهو يرى أن طبيعة التفاعل في الحِجَاج هي المحادثة والتواصل. ولهذا فإنه يضع قدرة التواصل لدى المتحاورين، واستعمالهم لألفاظ مفهومة، واحترامهم لقواعد المحادثة، وقواعد التواصل العليا (métacommunicationnelles) المتعلقة بالإطار الاختلافي للحِجَاج، شروطاً للتبادل الحِجَاجي. إضافة إلى ذلك فإن نظرية ويلار معيارية: إذ إن قواعد وشروط الحِجَاج، كما يحددها تمثل، أو تشارك على الأقل بقدر كبير في معايير التواصل المثالي. وفي هذا تتقاطع وجهة نظره، المركزة على الحِجَاج، مع وجهة نظر فلسفة هيبرماس (Habermas)[91].

(91) يرى هيبرماس وجوب دراسة شبكات التفاعل في مجتمع مكون من علاقات اتصالية، ومن اتحاد الأشخاص المتعارضين في التواصل. للتوسع يمكن مراجعة هذه الفلسفة بالاطلاع على أعمال يورجان هيبرماس المترجمة من اللغة الألمانية إلى اللغة الفرنسية مثل: التفكير مع هايدجر ضد هايدجر؟ منشورات جاليمار، باريس، 1974، والنظرية والتطبيق، منشورات بايوت، باريس، 1975، والمجال العام، منشورات بايوت، باريس، 1978، ونظرية الفعل التواصلي (الجزء الأول والثاني)، منشورات فايارد وبايوت، باريس، 1987. ويمكن الاطلاع على كتاب عمر مهيبل، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات الاختلاف والمركز الثقافي العربي والدار العربية للعلوم، الجزائر- بيروت، 2005 (الفصل الرابع). كما يمكن الاطلاع على كتاب تاريخ نظريات التواصل لارمان وميشل ماتلار، ترجمة نصر الدين لعياضي والصادق رابح، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005. (المترجم).

ولقد قاده تصوره الاجتماعي للحِجَاج إلى اتخاذ موقف أصيل فيما يتعلق بقضية المغالطات، خاصة بالنسبة للدراسات المتتابعة في المنطق غير الصوري. فهو يعتقد أن المغالطات، كطرق للحِجَاج، يجب اعتبارها عيباً أخلاقياً، أو إجرائياً، أو علائقياً (relationnelle) ولكن ليس عيباً منطقياً. وفي هذا يعتقد أن المنطق غير الصوري يصبح غير قادر على تقديم معالجة مناسبة؛ بل وأن مصطلح مغالطات (Fallacies) غير ملائم للوصف الدقيق. ذلك أنه من أصله يحتوي على إيحاءات منطقية. فما نسميه مغالطات، كما يرى، عبارة عن طرق حجاج مستخدمة في المجابهة، التي تمثل شرعيتها مشكلة من البداية، إذ نرى مباشرة أنها خادعة، حتى وإن كان لها مظهر شكلي مقبول. وإضافة إلى تعريفها بعيداً عن المنطق، فإن ويلار يعتقد بأن المغالطات ليس لها، بالضرورة، خاصية المغالطة: بالنسبة له يمكن أن يكون استعمالها في بعض الحالات مقبولاً تماماً. ويقدم هنا وصفاً للحجة باستخدام شخص الخصم، والتي يرى أنها قد تمثل طريقة معيبة على مستوى العلاقات، وليس على المستوى المنطقي، حيث توجد، كما يعتقد، حالات لا يمكن التمييز فيها بين تقييم الشخص وتقييم أفكاره. بالتالي يكون الهجوم على شخص الخصم مناسباً إذا كان التشكيك فيه مناسباً للهجوم على أفكاره.

إيميرن وجروتندورست: نظرية تداولية جدلية

(Une théorie pragma-dialectique)

من بين كل النظريات الأنجلوفونية المعاصرة في الحِجَاج، تعتبر نظرية إيميرن وجروتندورست (وجزئياً مع تجارك كروتر، Tjark Kruiter) هي الأكثر ربطاً بين الأبعاد التداولية والمعيارية. فهما يهدفان صراحة إلى التأليف بين الوصف التقني للحِجَاج وتقييمه، حيث يبدو لهما أن سمة أية حجة تتضمن، بالضرورة، بعض الاعتبارات حول قابليتها. وعلى العكس من ذلك فإن تحديد صلاحية الحجة يرتكز إلى الوصف المناسب لها.

يرى إيميرن وجروتندورست أن الحِجَاج عملية تتبع للتوفيق بين الآراء المتنافرة في إطار نقاش نقدي، وبهذا نستطيع أن نفهم لماذا يطلقان على نظريتهما «التداولية- الجدلية». فالحِجَاج عندهما يحتوي على مركب تداولي؛ لكونه يقدم في سياق تواصلي يحاول فيه المتحاورون حل عدم اتفاقهم. كما أنه يحمل مركباً جدلياً (ديالكتيكياً)، بالمعنى الأرسطي للمصطلح، لكون عملية الإقناع ترتكز إلى تبادل عقلاني. وبسبب هذه السمة الأخيرة

تعتبر نظرية إيميرن وجروتندورست معيارية: فالميزة العقلانية للمناقشة التي يحدث فيها الحِجَاج تحدد شروط قبوله.

فيما يخص العناصر الأكثر أهمية في نظريتهما فهي مقترحاتهما لتعريف الحِجَاج، وتصنيفهما للحجج، ووضعهما لقواعد النقاش، ومعالجتهما للمغالطات. وبلا شك يعد هذان الباحثان بين أكثر من حاول وضع تعريف للحِجَاج، يكون أكثر شمولاً وأكثر دقة. والواقع أنهما يقترحان تعريفين متكاملين للحِجَاج: الأول عام جداً، يبدأ من مجموعة الاعتبارات السبعة التي يعرضانها لموضوع الحِجَاج: فهو يتشكل في علاقة خطابية متداخلة، وهو نشاط عقلاني، ويتطلب استخدام اللغة، وهدفه تسويق رأي في سياق اختلاف آراء، ووظيفته الأكثر تحديداً هي الدفاع أو الهجوم على رأي ما، ويتجسد في هيئة ألفاظ، وغايته هي إقناع المتلقي بتماسك رأي ما. وانطلاقاً من هذه النقاط السبع يعّرف الباحثان الحِجَاج كنشاط اجتماعي وفكري وتلفظي يهدف إلى تبرير، أو تفنيد رأي ما، ومكون من مجموعة من الألفاظ، ويهدف إلى الحصول على موافقة المتلقي[92].

أما تعريفهما الثاني؛ فإنه أكثر تقنية، والحِجَاج فيه موصوف كحدث خطابي (acte de discours)، كما يعرف ذلك جون أوستن وجون سيرل[93]. والحدث الخطابي أساساً هو فعل يسمح به استخدام لفظة ما في شكل: كتقرير، أو سؤال، أو وعد، أو أمر، أو أي فعل آخر. ويرى إيميرن وجروتندورست أن الحِجَاج حدث خطابي، أيضاً، ولكنه أكثر تعقيداً من هذه

---

(92) يدرج المؤلفان هذا النص باللغة الإنجليزية، كاستشهاد في ثنايا الكتاب:

(«Argumentation is a social, intellectual, verbal activity serving to justify or refute an opinion, consisting of a constellation of statements and directed towards obtaining the approbation of an audience»,:7:1987). (المترجم).

(93) هذان الكاتبان يمثلان مرجعين رئيسين فيما يعرف اليوم بالتداولية (pragmatique)، فالأول أحد الطلائعيين الذين فتحوا باباً واسعاً بين فلسفة اللغة ودراسة استخدام اللغة، وليس وصفها فقط في ذاتها ومن أجل ذاتها، كما كان يريد دو سوسور. أما الثاني فقد أتى بعد أوستن، لينقد هذه النظرية، ويعدل فيها، ويطورها. ولقد تمت ترجمت كتبهما إلى اللغة الفرنسية في السبعينات. فتمت ترجمة كتاب أوستن (How to do things with words)، والذي كان في الأصل محاضرات قدمها في جامعة هارفارد ثم نشرها بعض طلابه بعد ذلك، بعنوان:

J-L. Austin. Quand dire. c'est faire. éditions du Seuil. Paris. 1970.

أما الكتاب الأول لسيرل (Searl. Speech Acts) فتمت ترجمته كما يلي:

John R. Ssarle, Les actes de langage, Essai de philosophie du langage, Hermann, Paris, 1972.

ويمكن الاطلاع على كتابه الثاني (Expression and Meaning)، الذي لا يقل أهمية عن الأول، وقد تمت ترجمته إلى الفرنسية تحت عنوان:

John R. Searle, sens et expression, études de théorie des actes de langage, édition de Minuit, Paris, 1982. (المترجم).



الأحداث الأولية بسبب أن وظيفته التواصلية تكون على مستوى مجموعة ألفاظ منظمة، وليس على مستوى اللفظة الواحدة. إن كل الألفاظ المستخدمة في الحِجَاج تسمح، كل على حدة، بإتمام حدث نصي أولي؛ كالتقرير، أو السؤال، أو الوعد، أو الأمر على سبيل المثال. وعندما تُجمع فإنها تستخدم، إضافة إلى ذلك، لإنتاج حدث يمكن وصفه بالجماعي وهو: الحِجَاج. ومع ذلك فالحِجَاج ليس الحدث المركب الوحيد، إذ الشرح والإسهاب والتفسير كلها أحداث ذات طبيعة أعلى. ويميز الباحثان بين ثلاثة أنواع من الحِجَاج تعتمد على مخططات حجاج مختلفة، أي طرق مختلفة لنقل قابلية المقدمات إلى النتيجة.

المخطط الأول: يختص بعلاقة تلازم بين المقدمات والنتيجة: هكذا يمكن اعتبار المقدمات كأعراض للنتيجة. ويمكن القول بأن الحِجَاج الاستنباطي والاستقرائي ينتميان لهذا النوع، على الرغم من أن الباحثين لم يشغلا نفسيهما بتحديد ذلك. أما مجموعة الحجج القياسية؛ كالمقارنة والمثل والإحالة إلى نموذج؛ فإنها عندهما تنتمي للنوع الثاني من المخططات والذي يشتغل من خلال التماثل: استنباط النتيجة من المقدمات يتشكل هنا بسبب بعض التشابه أو التوافق. وأخيراً، المخطط الثالث يعمل على علاقة أداتية بين المقدمات والنتيجة: فالمقدمات معروضة كأسباب للنتيجة. وفي هذا المخطط الثالث نجد، بالطبع، الحجج السببية وحجج الاستتباع (argument de conséquence)، وكل الحجج التي تتعلق ببعض أوجه العلاقة العامة بين الوسيلة والغاية.

وإضافة إلى التمييز بين أنواع الحجج، يقدم الباحثان وصفاً لسير النقاش النقدي؛ كإطار للحِجَاج. فوفقاً لهما، يتطور الحِجَاج تبعاً لأربع مراحل متتالية، هي: المجابهة، والبداية، والحِجَاج، والخاتمة.

في المرحلة الأولى يكون اختلاف الآراء مؤسساً أو معترفاً به: فمن جهة هناك موقف معلن ومن الجهة أخرى اعتراض عليه.

وفي المرحلة الثانية، وهي البداية، تحدث المواجهة، أي أنه قد تم اتخاذ القرار بمحاولة حل الاختلاف بين الآراء من خلال النقاش النقدي، أو بمعنى آخر، من خلال الحِجَاج. وفي هذه المرحلة يصبح لكل من المتحاورين دوره كمقترح وكمعارض، ويتم فيها اتفاقهما على القواعد الأكثر تحديداً للنقاش.

وفي المرحلة الثالثة، وهي مرحلة الحِجَاج الفعلي، يتبادل المتحاوران الحجج والحجج المضادة: فيقدمان الأسباب والمبررات التي تثبت الموقف المعلن أو تعاكس الموقف المعارض. وأخيراً، في مرحلة الخاتمة يكون الخلاف قد تم حله (بأسلوب مثالي)، سواء عن طريق التراجع عن الموقف المعلن أو عن طريق ترك معارضته.

ومع كل ذلك يبقى الإسهام الأكثر أصالة لهذين الباحثين هو من دون شك وضعهما لقواعد النقاش النقدي. فلقد صاغا عشر قواعد، على المشاركين في حجاج ما احترامها، وهي مؤسسة تقنياً وفقاً لشروط إتمام حدث الخطاب المركب، والذي يمثله عندهما الحِجَاج. هذه القواعد نضعها في الجدول التالي:

القاعدة ١	لا ينبغي على المشاركين في الحِجَاج منع بعضهما بعضاً من الإعلان عن موقف أو معارضته.
القاعدة ٢	الطرف الذي يعلن عن موقف ما عليه الدفاع عنه عندما يطلب منه الطرف المعارض ذلك.
القاعدة ٣	معارضة موقف ما يجب أن تتعلق فعلياً بهذا الموقف (كما هو مقدم).
القاعدة ٤	على المدافع عن موقف ما أن يقوم بذلك فقط من خلال تقديم حجاج مرتبط بهذا الموقف.
القاعدة ٥	لا يمكن لأحد الأطراف أن يسند للآخر مقدمة ضمنية، أو أن ينفي مقدمة جعلها هو ضمنية.
القاعدة ٦	لا يمكن لأحد الأطراف أن يستخدم مقدمة تم عرضها بصورة خاطئة؛ كنقطة انطلاق أو أن يفي مقدمة تعتبر نقطة انطلاق مقبولة.
القاعدة ٧	لا يمكن لأحد الأطراف أن يعتبر موقفاً ما مؤسساً إذا لم يدافع عنه من خلال مخطط حجاج مناسب، ومطبق بصورة مناسبة.
القاعدة ٨	في الحِجَاج لا يمكن لأي طرف من الأطراف استخدام حجج غير صالحة منطقياً، أو قابلة لأن تصبح كذلك من خلال التصريح بالمقدمات الضمنية.
القاعدة ٩	الفشل في الدفاع عن موقف ما يستدعي التراجع، والنجاح في الدفاع يستدعي التوقف عن معارضته.
القاعدة ١٠	لا يمكن لأي طرف أن يصوغ مداخلاته بصورة محيرة أو غامضة، ويجب على كل طرف فهم أقوال الطرف الآخر بالصورة الأكثر دقة والأكثر ملاءمة.

2 - البحوث الفرنكفونية

عند مقارنتها بالبحوث الأنجلوفونية؛ فإن البحوث الفرنكوفونية المعاصرة في الحِجَاج لها طبيعة فلسفية أكثر منها تجريبية، حتى وإن كان بعضها يتعلق بالتعليم. فعلى الصعيد النظري يمكن التمييز بين أربع مقاربات مختلفة: مقاربة بلاغية تتبع خط بيرلمان بصورة مباشرة ويمثل هذا الاتجاه بصورة رئيسة كل من ميشل ماير(94) وأولوفييه ربول(95)؛ وهناك مقاربة إبستيمولوجية، أو بشكل أوسع إدراكية (intellective)، يعبر عنها بشكل خاص جان بليز جرايز(96)وجورج فينو(97)؛ وهناك مقاربة اجتماعية تلفظية (socio-énonciative)، يمثلها بصورة أساسية كريستان بلانتان(98)وأولي فينديش(99)؛ وأخيراً، هناك مقاربة مستوحاة من بيرلمان وتركز على البعد الأخلاقي للحِجَاج، وهي التي يمثلها فيليب بروتون(100).

جرايز: نظرية للمنطق الطبيعي (Une théorie de logique naturelle)

الواقع أن جرايز (1982، 1990، 1996) (ومع بوريل وميفيل، 1983 ومع ابوثيلوز وبوريل وميفيل وبيكينا، 1984)(101)لم يضع نظرية في الحِجَاج بمعنى الكلمة، وإنما يقترح، من منظور استكشافي، بعض المعلومات التمهيدية الضرورية للفهم الصحيح للحِجَاج.

فنقطة انطلاقه تتشابه في أوجه عديدة مع نقطة انطلاق تولمن، فهو ينطلق في المقام الأول من اهتمام ابستيمولوجي ليعترض على زعم المنطق الرياضي السيطرة على المعرفة. فمن خلال ملاحظاته لقصور المقاربة المنطقية الرياضية لتطوير المعرفة العلمية، خاصة في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وكذلك في الممارسة العادية للتفكير، يتبنى تطوير وضع منطق «طبيعي»، منطق «لما هو يومي»؛ منطق «علماني». ومن خلال معارضته لمحاولة توسيع سطوة الصورية، أي: اختزال المنطق في المنطق الرياضي فقط، ومن خلال مطالبته

---

(94)(Michel Meyer).
(95)(Olivier Reboul).
(96)(Jean-Blaize Grize).
(97)(Georges Vignaux).
(98)(Christian Plantin).
(99)(Uli Windisch).
(100)(Philippe Breton).

(101) في كتاب:

Borel & Miéville, 1983. Apotheloz, Borel, Miéville & Péquegnat, 1984.

بما يفضل تسميته «تليين» المنطق الصوري، يتبنى جرايز النظرة الشاملة ذاتها لتولمن، مبتعداً في الوقت ذاته عن بيرلمان. فالموضوع بالنسبة له ليس التخلي عن المنطق، وإنما إعادة تشكيلة، وإكماله، وتحسينه. لذلك فإن مصطلح «المنطق الطبيعي» يعبّر في حد ذاته تماماً عن هذه الرغبة الإصلاحية. ويرى جرايز أن هذا المنطق الطبيعي يتميز عن المنطق الصوري من خلال ثلاث سمات أساسية.

أولاً: أنه ليس شكلياً فقط، لكنه، بالتحديد، محتوى أيضاً. فهو لا يعمل في فراغ، وهو ليس رمزياً وإنما يتعلق «بوقائع». ثانياً: يعتبر المنطق الطبيعي خلّاقاً: فهو يسمح بعمليات مبتكرة، وليس فقط ميكانيكية. وأخيراً: طرح المنطق الطبيعي في إطار نصي، وحواري، وتواصلي.

يعتبر الحِجَاج عند جرايز تمظهراً خاصاً من المنطق الطبيعي. فهو لا يمثل سوى مجال واحد من أربعة مجالات للدراسة، وهذه المجالات هي: اللغات الطبيعية (Les langues naturelles)، والكيفية (La modalité)، والزمن (Le temps). ولقد بين جرايز في تناوله، ذي الأساس البرامجي (programmatique)، بعض السمات الصريحة للحِجَاج؛ ومن ذلك ملاحظاته المتعلقة بالمنطق الطبيعي وبالنشاط الرئيس الذي يسمح به «التمثيل التخطيطي» (Schématisation).

يصف جرايز المنطق الطبيعي، بطريقة تقنية، بأنه منطق للفاعلين وللأشياء. فطالما أنه يتحقق في استخدام اللغة (خاصة اللغة الطبيعية)، وأنه بالتالي يحدث في سياق تعبير مشترك وتواصلي؛ فإنه يتطلب أخذ الجوانب المتعلقة بفاعلي التلفظ بعين الاعتبار؛ كأوضاعهم، ومقاصدهم واستخدامهم للمسكوت عنه، على سبيل المثال. كما أنه منطق للأشياء، حيث إنه يشتغل على مرجعيات مشتركة بين أطراف الحِجَاج، مثل الأشياء الفكرية المبنية، وفقاً لجرايز، بواسطة أطراف التفاعل. ففي الوقت الذي يهدف فيه المنطق الصوري إلى وصف القواعد المتعلقة بالبرهان، يهدف المنطق الطبيعي إلى تحديد العمليات وفق الألفاظ وطريقة ترابطها.

ويسمي جرايز النشاط الذي يحدث في ممارسة المنطق الطبيعي بالتمثيل التخطيطي (في حقيقة الأمر إن المنطق الطبيعي بالنسبة له هو دراسة عمليات هذا التمثيل). وهذا المصطلح يقصد به كل من إنتاج عالم الخطاب للنشاط اللغوي للتواصل ونتيجته: أي أنه

التمثيل الجامع للموقف الخطابي (La représentation globale de la situation discursive). هذا التمثيل يعود إلى المتحدث وسامعه، أو متلقيه (إلى سلوكهم ومواقفهم)، وعلاقتهم المتداخلة، وموضوع الحوار، وسياق تشكله. ويصر جرايز على أن التمثيل التخطيطي هو عملية خلق للمعنى تعتمد على خلفية «تصورات ثقافية سابقة» (أو «تمثلات اجتماعية») تخضع لشروط التناسق والتماسك.

ويحتوي المخطط النظري للحِجَاج عند جرايز على سمتين مهمتين: فهو تداولي وبنائي. فالحِجَاج، بالنسبة له، هو قبل أي شيء «نشاط منطقي - خطابي»، فهو ينتمي للمنطق الطبيعي. ولهذا فإن نظرية الحِجَاج، كما يتصورها، يجب أولاً، أن تبين العمليات ذات الطبيعة المنطقية و«أنواع ربط الأفكار غير البرهانية» المستخدمة في التواصل الخطابي بين طرفين. وثانياً، بما أن الحِجَاج يصبح هكذا مجالاً للبحث في المنطق الطبيعي؛ فإنه يصدر عن نشاط تمثيل تخطيطي، خاصة أن هذا التمثيل لا يتعلق بالحقيقة وإنما بالاحتمالية. بهذا الشكل فإن الحِجَاج يطرح على خلفية تمثيل مبني (représentation construite). وأخيراً يلتقي جرايز من بيرلمان من خلال اعترافه بخاصيتين كبيرتين للحِجَاج، هما: غايته الإقناعية وتعايش «مستويين» في داخله، أحدهما خاص بـ«الوقائع» وثانيهما بـ«القيم». ويعتبر تعريف جرايز «لخطة الحِجَاج»، على مستويين، أحد الإسهامات الفريدة له: فالمستوى الأول ينطلق من المتلقي وينتهي عند الخطيب، والثاني ينطلق من الافتراضات المسبقة (أحكام سابقة للنص) ويخلص إلى الوقائع.

فينو: نظرية للمنطق الخطابي (Une théorie de logique discursive)

قام جورج فينو (1988،1976) بتطوير أفكار جرايز وبمعارضة بعضها، وقدم ما يمكن تسميته برنامجاً بحثياً، وليس نظرية، «لقواعد الحِجَاج». ومن خلال انتفاضته على أرسطو وبيرلمان، يضع فينو تصوراً واسعاً جداً للحِجَاج.

تتشابه نقطة انطلاقه كثيراً مع جرايز، فهو يهاجم التمييز القاطع بين الحِجَاج والبرهان. فالتعارض، الذي يعبّر عنه بالقول: «مقدمات أكيدة: برهان، ومقدمات محتملة: حجاج»، يبدو له خدّاعاً وخطيراً. فهو يقود بصورة خاطئة إلى الاعتقاد في شيئين: الأول، أن الحِجَاج موسوم بعدم الكمال، في مقابل البرهان المطروح كنموذج مثالي. والثاني، أن أي عنصر له طبيعة الحِجَاج مقصي تماماً من البرهان. في وجه هذه

الثنائية الشائعة يطالب فينو بالاعتراف بالحِجَاج كمحرك مشترك لكل نشاط فكري. وبهذا فإنه يحاول بجلاء كسر التنافر القائم اليوم بين البلاغة والجدل، من جهة، والمنطق من جهة أخرى. ومن المؤكد أن الحِجَاج والبرهان لا يتناولان ذات الموضوع. فموضوع الحِجَاج ونقطة انطلاقه، هو مشكلة ما، أما موضوع البرهان ونقطة انطلاقه، فهو قضية يطلب إثباتها. ومع ذلك يرى فينو أنهما يتشابهان، فهما عبارة عن شكلين من أشكال الاستدلال، أو أنهما يتداخلان في أي عملية استدلال؛ بل إن فينو يذهب بعيداً بزعمه أنه ليس من المؤكد أن الحِجَاج غير قابل لأن يختزل، أو أنه يستعصي على أي تشكّل رياضي.

إن الجوانب المهمة في الحِجَاج، كما يراها فينو، هي تجسده في الخطاب ورسوخه في العلاقة مع المتلقي. ولهذا فإنه يميز بين محورين في البحث: محور دراسة الإستراتيجيات الخطابية، ومحور دراسة شروط استخدامها. ومن خلال تموضعه في المحور الأول؛ جهّز ما يسميه «منطق الحِجَاج الخطابي»، وذلك بإعادة النظر في الحقل النظري والمفهومي لكل من الحِجَاج والبلاغة. ويرى، كما هو الحال لدى بيرلمان، أن الحِجَاج هو تمثل مبني بواسطة المتكلم في اتجاه متلقٍ ما، أكثر من كونه استدلالاً يتعلق بالاحتمالية المتعارضة مع البرهنة باللازم في المنطق. وهذا التصور معمول من قضايا، وتأكيدات، وأحكام منسقة في مخطط منطقي (schémalogique)، أكثر منه نسقاً معيناً (système)؛ لأنه تصور تثيره وتوجهه الغاية ومصاغ في مواقف وأفعال.

وعلى الرغم من إقراره أن الحِجَاج يتم دائماً في سياق وأن مجموعة «قيم» تتداخل فيه، أي قواعد ومبادئ واعتقادات وافتراضات؛ بل وأحكام مسبقة يتشاطرها الخطيب ومتلقوه، إلا أن فينو يحاول كشف وتحليل العمليات المنطقية والبلاغية التي تدير الحِجَاج. فالعمليات المنطقية تتعلق بصيغ تماسك الحجج. فهي إذن تهتم بأشياء عديدة؛ كطرق الاستنباط ووظائف الحِجَاج: ومثال ذلك تمثل حجة ما بصورة دائمة في صيغة دليل. وأثناء فحص العمليات المنطقية، وبالذهن المعارض ذاته للتمييز القاطع بين الحِجَاج والبرهان، بيّن فينو المواءمة والاستمرارية بين مصطلحات متنافرة ظاهرياً مثل «الوقائع» و«القيم». أما فيما يخص العمليات البلاغية، فإنها تتعلق بطريقة تشكّل الحجج، حيث يرى فينو، في هذا الصدد، أن التصور الحِجَاجي يصدر عن عملية أساسية يسميها «التنظيم» (ordre).

هذا التدقيق في الفصل سمح له، من دون شك، دعم فكرته الأصلية عن الحِجَاج (وبشكل أشمل عن اللغة والخطاب) كعملية تشكل تشبه المسرح (théâtralité). وبهذا المفهوم يريد فينو تبيان فكرتين. فهو يريد، بداية، توضيح أن خطاب الحِجَاج منتج من شروط اجتماعية، وبالتالي فهو ثمرة اختيار وبحث خاصة. ثم بعد ذلك، يريد توضيح أن عمله يحتوي على تشكّل يمكن تسميته «أسلوبي»، أي أن من مقاصد الخطاب، كما يقول هو ذاته، «اللباقة»، و«الإسهاب»، بل و«الموسيقى». وبما أن العلاقة بين محتوى الحِجَاج والخارج الذي يتوجه إليه هي تمثل واحد؛ فإنه بهذا إخراج مسرحي. وهذه الفكرة ربما جعلت من تصور فينو الأكثر بنائية (constructiviste) في الحِجَاج. وإضافة إلى ذلك فإنها تعطيه قابلية تطبيق واسعة جداً. فبالنسبة له، تعتبر الإستراتيجيات الخطابية، التي يقدم فيها الحِجَاج، هي أيضاً إستراتيجيات معرفية (cognitives)، أو معضدة لها. بذلك يمكن القول بأن الحِجَاج بصورة أو بأخرى هو الإطار الذي ينمو فيه كل شكل من أشكال المعرفة (connaissance).

بلانتان: نظرية لغوية (Une théorie linguistique)

يتناول بلانتان (1996,1993,1990) الحِجَاج من وجهة نظر لغوية بالأساس: فهو يعرفه كعملية لغوية يحاول من خلالها مستخدم اللغة الحصول على قبول متلقيه لنتيجة ما، وذلك بتقديمه لسبب يجعل هذه النتيجة مقبولة. ولفهم كيفية نمو الحجة في لحظة التلفظ والتعبير، يقوم بلانتان بعملية مراجعة شاملة للدراسات المختلفة المخصصة للحِجَاج. وتجدر الإشارة إلى تميز هذا العمل الذي قام فيه بلانتان بتقديم خلاصة مجموعة كبيرة من البحوث الفرنكفونية والأنجلوفونية، بصورة مفصلة؛ لينطلق منها بعد ذلك لطرح إشكالية تتعلق بالعديد من التصورات والقضايا.

ويتبنى بلانتان بعد ذلك منظوراً يسميه «نقدياً»، ولكن يمكن وصفه أيضاً، على الأقل جزئياً، بالحِجَاجي الشارح (méta-argumentative). فلقد قام ببحث مفرداتي دقيق للاستخدامات العادية لمصطلحات أساسية مثل «الحِجَاج»، و«الحجة» و«أفحم» و«أقنع». وفي ختام دراسته هذه اقترح عدة أمور منها: نظرة عامة للحِجَاج من خلال الكشف عن المعاني الستة الرئيسة له.

كمعنى أول عام، يطغى على باقي المعاني، يُعرِّف الحِجَاج، بصورة بسيطة؛ كعملية تلفظية يقوم بها مستخدم اللغة لمحاولة تغيير معتقدات وتمثلات مخاطبه أو متلقيه. وهذا المعنى العام يمكن تحديده في خمسة مفاهيم يسند بعضها الآخر.

الأول ينتج من التعارض بين الموقعين المحتملين للنشاط اللغوي للحِجَاج: اللغة أو الخطاب. في النظرة الأولى للأمور، كل لفظة ليس لها محتوى دلالي إلا من خلال ارتباطها بألفاظ أخرى. هنا إذن تعتبر اللغة ذاتها وبكاملها ذات طبيعة حِجَاجية. أما وفق تصور الحِجَاج كحدث خطابي؛ فإن الحجة تتكون من علاقة استنباط بين لفظتين، وتتطلب بالتالي حداً أدنى من الشكل الخطابي - وهو ما يعني أنه ليس كل الألفاظ، أو كل تأليفاتها، يمكن أن تمثل حججاً. وهنا تطرح مسألة معيار الحِجَاج التي تضع على السطح معارضة جديدة بين العقل العلمي (raison scientifique) والفعل العملي (action pratique). ولهذا الحدث العملي ينتمي التقييم التداولي للحجة وفقاً لفاعليتها، وهذا ما يُظهر معنى ثانياً للحِجَاج يجعل منه عملية لغوية تهدف إلى التأثير على المتلقي. أما فيما يتعلق بالعقل العلمي؛ فإنه يتلازم مع التقييم المنطقي للحجة. وهذا التقييم يمكن أن يكون فضفاضاً، وبالتالي يسمح بانبثاق معنى ثالث مشتق من الحِجَاج، وهو الخاص بالمنطق غير الصوري الذي يعرفه بلانتان، ببساطة، كعملية خطابية تهدف إلى تقديم أسباب مقبولة. كما يمكن أن يكون التقييم صورياً، ويصدر عنه النوعان الأخيران المساندان من الحِجَاج: الحِجَاج بالخبرة والحِجَاج المنطقي. أولهما: يتمثل في عملية خطابية تصبو نحو اختبار فرضية ما. والثاني: يتمثل في استدلال بالمعنى الدقيق للكلمة، وبتحديد أكثر فهو استنباط، أي بناء نتيجة انطلاقاً من مقدمات معتبرة صحيحة.

فينديش: نظرية اجتماعية (Une théorie sociologique)

يتناول فينديش (1990,1985,1982) الحِجَاج من منظور اجتماعي في الأساس، لكن من خلال تجسده التلفظي، وهو هنا يلتقي مع بلانتان. وما يركز عليه هو فحص كيفية تشكّل وعمل ما يمكن تسميته، بصورة عامة، «المنطق الاجتماعي» (la raison sociale): أي طرق التناول والشرح التي ينتجها الناس للتعامل مع المواقف والظواهر الاجتماعية. انطلاقاً من هذا الاهتمام الأولي، وبعد قطعه مسافة لا بأس بها، يصل فينديش إلى

الاهتمام بالحِجَاج. فالطريق الذي قطعه سار به من «التفكير» إلى «الاستدلال» وانتهى بـ«الحِجَاج»، وكما تشير إلى ذلك بوضوح العناوين الرئيسة والفرعية لكتبه.

وقدم هذا الباحث بعض التصنيفات منطلقاً من اهتمامه التصنيفي والتجريبي. وهذه التصنيفات المتعلقة بالحِجَاج تختص بالشكل الخطابي- المنطقي (logico-discursive) للتفسير السببي، ونماذج الإسناد السببي (les paradigmes de l'attribution causale)، وأساليب الحِجَاج.

يقوم الناس، وفقاً لفينديش، في حياتهم اليومية، أولاً، بتقديم شروح سببية متبعين خمسة أشكال خطابية منطقية، أو نماذج مثالية للشرح، وهي: السببية المجزأة (segmentée)، والسببية الدائرية (circulaire)، والسببية العارضة (contingente)، والتشبع السببي (sursaturation)، والسببية المتعددة (Multiple). ففي السببية المجزأة يقوم المرء، عفوياً، ومن خلال ربط الأفكار، بعملية خلق لمجموعة من الثنائيات (سبب/ نتيجة) مرتبطة ببعضها. أما في السببية الدائرية؛ فإن المرء يحاول تأسيس علاقة بين السبب والنتيجة مؤسساً، في الوقت ذاته، علاقة مقابلة بين السبب المعاكس والنتيجة المعاكسة. أما السببية العارضة؛ فإنها تبني رابطاً سببياً بين الظواهر المتزامنة، أو متقاربة الحدوث. وفيما يتعلق بالتشبع السببي؛ فإنه يسند كمية كبيرة من النتائج إلى عدد محدود من الأسباب، وغالباً ما يكون واحداً. وعلى العكس من ذلك؛ فإن السببية المتعددة تشرح ظاهرة ما من خلال عدة أسباب.

أما نماذج الإسناد السببي؛ فإنها طرق تطبيق الأشكال الخطابية المنطقية للتفسير السببي على المحتوى. ويفرق فينديش بين ثلاثة منها، هي: نموذج الخروج عن المألوف (Paradigme de la déviance)، والنموذج المادي (matérialiste)، ونموذج التردد أو الحيرة (indétermination). وبصورة عامة، يمكن القول بأن نموذج الخروج عن المألوف يشرح الظواهر الاجتماعية، بواسطة الحدث الفريد أو غير الاعتيادي للأفراد أو الجماعات. والنموذج المادي يشرحها من خلال شروط عملية. أما نموذج التردد أو الحيرة؛ فيفسرها بالعوامل العامة غير الشخصية.

وأخيراً، يضع فينديش ثلاثة أساليب للحِجَاج «العادي»، أي ثلاث كيفيات عامة يحاول الفرد من خلالها تقديم بعض المبررات لتصوره للظواهر الاجتماعية. وهذه الأساليب

هي: أسلوب الحِجَاج الوهمي (pseudo-argumentatif)، وأسلوب الحِجَاج النفساني (psychologisante)، وأسلوب الحِجَاج الحواري (dialogique). وينحصر الأسلوب الأول في تتابع غير متواصل؛ بل وغير متماسك، بين القضايا؛ أو أن ما هو معروض كأساس لموقف ما، ليس له في الحقيقة علاقة سببية بهذا الموقف. وفي الأسلوب الثاني، أي الحِجَاج النفساني، يقوم الفرد بإسقاط ذاتيته (مواقفه ووجهات نظره) في شرحه للظواهر الاجتماعية. وفي أسلوب الحِجَاج الحواري يتم تناول الظواهر الاجتماعية من خلال أخذ وجهات نظر متعددة بعين الاعتبار ومواجهتها ببعضها بعضاً.

ميشل ماير، الحِجَاج وفلسفة الاستشكال

(argumentation et philosophie de la problématicité)

هذا الأستاذ في جامعة بروكسل، الذي ينتمي لما يسميه ألن لامبرور بمدرسة بروكسل، بجانب شايم بيرلمان وأميل دوبريل، يتناول الحِجَاج انطلاقاً من تأمل فلسفي يفصله عن الأنطولوجيا والميتافيزيقيا. وبالتالي فإن مقاربته البلاغية التي تمثل خاصيتها الحِجَاجية سمة ثابتة، منفصلة أيضاً عن «المنطق الافتراضي» (la raison propositionnelle) (ماير، في لامبرور، 1990)، وبصورة عامة عن كل فلسفات اللزوم والوضوح.

يضع ماير فكره في إطار التجديد الحالي للبلاغة الذي يرتبط، كما يرى، بنهاية الأنساق الكبرى للفكر: «إن البلاغة تولد من جديد عندما تنهار الأنساق الأيدلوجية» (ماير، 1986: 7). في هذا السياق نجد أننا أمام «نزع الجوهر من البعد الجماعي الذي يجعل منه غايته»(1986: 8)، ويضع بالتالي اللغة والبلاغة في قلب الحداثة. ولا يعتقد هذا الفيلسوف البلجيكي، المتفائل جداً فيما يتعلق بهذه النقطة، أن «الضرورة الرياضية كنموذج للخطاب والفكر» يمكن أن تفرض نفسها من جديد.

تبقى البلاغة دائما بالنسبة له «اختيار الخطاب بدل اللجوء للقوة» وفي التعريف الذي يعطيه لها يقول إنها: «لا تختلف في شيء عن الحِجَاج (...)، ويتعلق الأمر بطريقة عقلانية لاتخاذ القرار في حالة عدم التأكد، وقابلية الصواب، والاحتمالية» (1986: 13).

إن نقطة انطلاق ماير لا تعود لأرسطو، الذي يعتبر بلاغته خاضعة كثيراً للمنطق الافتراضي والأنطولوجي، وإنما تقتفي أثر كانتيليان (Quintilien)، الذي يجعل من

البلاغة «علم الفصاحة (...) الذي يتضمن كل مجودات الخطاب، وأيضاً أخلاق الخطيب، حيث لا يستطيع المرء حقًّا الكلام من دون أن يكون إنساناً صالحاً». (institution oratoire, 2, 15). وهذه «الفصاحة» تغطي العديد من الأهداف، التي يصفها ماير كما يلي:

- الإقناع والإفحام، وخلق القبول.
- الإعجاب، والإغواء أو الاستدراج، والتبرير (أحياناً مهما يكون الثمن) للأفكار من أجل تمريرها كما لو كانت صحيحة، أو لأنها صحيحة، أو للاعتقاد بأنها كذلك.
- تمرير قابلية الصواب، والرأي، والمحتمل بواسطة أسباب جيدة وحجج، مع اقتراح الاستنباطات أو استخراجها للآخرين.
- اقتراح ما هو ضمني من خلال ما هو مصرح به.
- تأسيس معنى مجازي، واستنباط معنى حرفي، ومن أجل ذلك يتم استخدام صور أسلوبية وبعض حكايات.
- استخدام لغة أدبية مجازية وأسلوبية.
- اكتشاف نيَّات من يتكلم أو يكتب، والقدرة على تقديم أسباب لما يقوله من خلال ما يقوله ومن خلال غير ذلك من المعطيات.

إن تاريخ البلاغة بالكامل قد تم تناوله في تطور واحد أو أكثر من هذه الأبعاد. إلا أن هناك، وفقاً لماير، «وحدة في تعريف البلاغة»، موجودة مسبقاً في الفصل التقليدي بين صورة الخطيب، والخطاب، والمشاعر. لكن ماير يذهب أبعد من ذلك من خلال ملاحظته أن البلاغة كانت دائماً «لقاء بين البشر واللغة خلال عرض اختلافاتهم وهوياتهم»، ويقترح بالتالي تعريفها لتصبح «التفاوض حول المسافة الفاصلة بين الأفراد» (1986: 22). إلا أن مثل هذا التعريف، الذي يجعل من المسافة رهان البلاغة، لا يكفي إذا لم نحدد مسبقاً موضوع المواجهة، والذي هو دائماً «مسألة» كما يعتقد ماير. بهذا المعنى فإنه يتلاقى مع أرسطو في تعريفه الشهير الذي يعطيه للبلاغة بأنها «القدرة على إعطاء كل مسألة ما هو مناسب للإقناع بها». انطلاقاً من هنا، يقترح ماير تعريفاً عاماً للبلاغة لتكون «التفاوض حول المسافة الفاصلة بين الناس فيما يتعلق بمسألة أو مشكلة» (1986: 22).

هكذا يفتح هذا الفيلسوف مجالاً واسعاً على الفكر بإدخال وتقنين ما يسميه «الاستشكالية». فخلافاً للتقسيم التقليدي للمشكلات بين ما هو قضائي، وما هو استشاري، وما هو استدلالي، يقترح تصنيفاً وفقاً لدرجة الاستشكال في المسائل المثارة. وهكذا تجد البلاغة نفسها وقد زج بها في وحدة أكبر. هذا إن لم تكن هي ذاتها هذه الوحدة، مشكلة بذلك فكراً يكون «التفضيل فيه للطموح المؤسس والشامل» كما يقول لامبرور (1990). وطموح علم «الاستشكال» (Problématologie)[102] (ماير، 1986)، هو الخروج من هذا البديل الزائف الموروث من أفلاطون، والذي لم يعرف حتى أرسطو كيف يتفاداه تماماً، وهو جعل البلاغة وخطابها (logos) مجرد مرحلة توقع بسيط لقضية قابلة لأن يبرهن عليها، وشيئاً مهملاً في إطار البحث عن الحقيقة. وبهذا يمكن القول إن ميشل ماير يضع نفسه، بقوة وبصورة أصيلة، في الفكر المؤسس للحداثة الراغبة في بناء عقلانية لا تبالي بفكرة الحقيقة، والذي يمثل تجديداً فيها المنهج الذي لا غنى عنه.

أوليفييه روبول

ينخرط روبول من دون شك في التقليد الذي بدأته «مدرس بروكسل»، ولكن مع إعطاء هذا الفكر بعض الخصوصية. هذا الأستاذ، الذي عمل في جامعة العلوم الإنسانية بمدينة ستراسبورغ حتى وفاته، نشر كتاباً عنوانه «مدخل إلى البلاغة» في المطابع الجامعية لفرنسا (1991)[103].

يمكن وضع روبول في داخل الفضاء النظري الأرسطي، وذلك من خلال تعريفه للبلاغة على أنها «فن الإقناع بواسطة الخطاب»، إلا أنه يرفض الفصل بين التوجهين الذين ظهرا في الستينات (البلاغة الجديدة لبيرلمان من جهة، وجماعة مو MU وكذلك بارت وجنيت من جهة أخرى). فالأول، كما نعرف، ذو بعد حجاجي قوي، في حين أن الثاني يأخذ اتجاها يرتكز إلى الشعر القديم. فبالنسبة لروبول، ينبغي على البلاغة التأليف والتركيب بين الحِجَاج والأسلوب لأداء وظيفة واحدة. وبهذا يقدم مخططاً مثيراً يفصل بين وظائف الخطاب الثلاث، وهي البرهان، والحِجَاج، والخطابة (أسلوب)، وفي الوقت ذاته يجمعها في حقلين كبيرين هما العقلاني (البرهان والحِجَاج) والبلاغي (الحِجَاج والخطابة).

---

(102) راجع كتاب ماير:

De la problématologie, Paris, Librairie Générale Française, Livre de Poche, 2e éd, 1994.

(103) Introduction à la rhétorique, Paris, PUF, 1991.

واتساقاً مع التعريف الذي يعطيه للبلاغة، يخصص أبواباً كبيرة للصور الأسلوبية ولتصنيف الحجج. وفيما يتعلق بتصنيف الحجج؛ فإنه لا يختلف عن تصنيف بيرلمان، ويقدم له ملخصاً واضحا. وقد يكون الفرق الوحيد هو في تصنيفه للمقارنة بين الحجج التي تأسس بنية الواقع، وليس بين الحجج شبه المنطقية، كما فعل بيرلمان. ويعود ذلك إلى أن الأمر عنده عبارة عن «بنية لا يفرضها الواقع وإنما يجب أحياناً خلقها» (1991: 183).

ولقد أشار روبول إلى مضمار بحث، لم يلجه في هذا الكتاب، وهو «عدم الاستعاضة عن الحجة» (non-substituabilité)، وذلك عند تفسيره للخاصية المناسبة للحجة في موقف ما. ويحتوي كتاب روبول على الكثير من الأمثلة الحديثة، ويستعين بالعديد من المقاطع من النصوص البلاغية. وليس أسلوب روبول الواضح القيمة الوحيدة له. وتجدر الإشارة إلى أن لروبول مؤلفاً في الموضوع ذاته، في سلسلة «ماذا أعرف؟»[104] وهو أكثر تلخيصاً (1983).

فيليب بروتون

في كتابه «الحِجَاج في التواصل»، (1996)[105]، يتبع بروتون الخط الفكري لأرسطو وبيرلمان ليعطي لتحليله بعد ذلك بُعداً تواصلياً. يتعلق الأمر، بالنسبة للكاتب، بالتركيز على الحِجَاج كـ«استدلال تواصلي»، من جهة، والإشارة إلى أهمية دور «الاتفاق المسبق»، في هذا الاستدلال، من جهة أخرى، من دون أن يقوم بعملية فصل بين الأمرين. فالحِجَاج يختلف بوضوح عن «الاستدراج»، الذي هو أحد تنوعات الإقناع من دون «احترام حرية التلقي عند المخاطب» (هذه المسألة تم تناولها بإسهاب في كتاب آخر لبروتون، 2000)[106]. ويرتكز كتاب بروتون، الذي نتناوله هنا، إلى تصنيف للحجج توجد فيه الحجة بالصلاحية، والحجة القياسية (الربط، والمماثلة، والكناية)، والاستناد إلى الافتراضات الضمنية المشتركة (القيم، والمعتقدات، والمسلمات)، وحجج التأطير (التعريف، والوصف، والإسهاب، والفصل).

(104) السلسلة المعروفة ?Que sais-je، وقد نشر الكتاب المذكور عام 1984 تحت عنوان: البلاغة (La Rhétorique). (المترجم).

(105) Breton, Philippe: L'argumentation dans la communication, Paris, la découverte, 1996

(106) يعني المؤلفان كتاب بروتون المعنون: الكلام المستدرج (La parole manipulée)، منشورات (La Dé-couverte). وقد فاز هذا الكتاب بجائزة فلسفة الأخلاق والسياسة (1998) التي تمنحها الأكاديمية الفرنسية للعلوم الأخلاقية والسياسية.

ويعتبر الحِجَاج عند بروتون، في نهاية المطاف، «تعديل سياق التلقي للمخاطب». ومع كل؛ فالحِجَاج ينحصر في المواجهات العامة (القضائية، والسياسية، والنقاشات الاجتماعية)، إذ إن العقلانية الحِجَاجية لا تهتم بمجال العلوم، وعلوم المعلومات، أو الدين، أو العواطف، والتي تنتمي لعقلانيات أخرى. هذا الكتاب لبروتون، الذي يتصف بالوضوح التام، يحتوي على العديد من الأمثلة المستقاة من المجابهات السياسية والاجتماعية المعاصرة.

جيل ديكليرك وجان جاك روبريو

من منظور قريب من ذلك الذي رأيناه عند روبول، والذي ينحو إلى إدماج جزء الحِجَاج والجزء الأسلوبي والأدبي للبلاغة في وحدة متماسكة، يقدم جيل ديكليرك كتاباً بعنوان «فن الحِجَاج: بنيات بلاغية وأدبية» (1993)[107]. ينطلق الكاتب من ملاحظة هي: «إذا كانت ممارسة الحِجَاج واقعاً اجتماعياً في عالم اليوم، فمن المناسب إرجاع الأهمية الثقافية اللازمة للنظرية وللمنهج» (المرجع السابق). لذلك يقترح «كتاباً يكون مدخلاً منهجياً إلى بنيات الحِجَاج كما تشكلها النظرية البلاغية، وملاحظة التطبيق والتأثيرات لهذه النظرية في الأدب». ينقسم كتابه في حقيقة الأمر إلى جزءين كبيرين، الأول عن بلاغة أرسطو والبلاغة الجديدة لبيرلمان، والثاني مخصص «للحِجَاجية» (argumentologie) كمنهج لتحليل النصوص الأدبية.

وفي توجه قريب من هذا يمكن أن نذكر كتاب جان جاك روبريو تحت عنوان: «عناصر البلاغة والحِجَاج»[108] من منشورات دونود (Dunod)، والمكون من مصطلحات مفصلة للصور الأسلوبية والحجج، مسبوقة بتقديم تاريخي للبلاغة منذ أرسطو.

بيير أوليرون

في سلسلة «ماذا أعرف؟»، من دار المنشورات الجامعية لفرنسا، يوجد، إلى جانب كتاب أوليفييه روبول الذي سبق ذكره، كتاب لبيير أوليرون بعنوان «الحِجَاج»[109]. هذا الكاتب

(107) Declercq, Gilles: L'Art d'argumenter. Structures rhétoriques et littéraires, éditions universitaires, Paris, 1993.
(108) Robrieux, Jean-Jacques: Eléments de rhétorique et d'argumentation, Dunod, Paris, 1993.
(109) Oléron, Pierre: L'Argumentation, Paris, PUF, « Que sais-je», 1993.

المتخصص في الأنشطة الثقافية، والفكر، والاستدلال، يقدم مقاربة رائعة، على الرغم من أنها لا تمتاز، في أصلها، عن الخط الذي رسمه أرسطو وبيرلمان. ونقطة انطلاقه ليس الحِجَاج بقدر ما هي الآلية الفكرية والاجتماعية للحِجَاج، والذي يعرّفه على أنه: «الآلية التي من خلالها يأخذ شخص -أو مجموعة أشخا- على عاتقه مهمة قيادة متلقٍ ما إلى تبني موقف، وذلك بتقديم تأكيدات -حجج- تهدف إلى توضيح صلاحية هذا الموقف أو صحته» (1993: 4). لهذا فهو يعطي الأولوية في كتابه «لواقع استعمال» الحِجَاج كـ«مكوّن للحياة الاجتماعية» (1993: 14).

ويرفض أوليرون، مثل بيرلمان، الزعم بعمومية العقلانية الديكارتية، ويقدم الحِجَاج كحقل ينتمي في ذات الوقت لـ«الاستدلال والتأثير»، ولـ«الصرامة وللضبابية». ويميز تصنيفه للحجج بين ستة أنواع:

1. إيقاظ وتوجيه الدوافع، وذلك في إطار استخدام العواطف مثلاً.
2. اللجوء إلى الوقائع التي ترتبط أهميتها بنوع الثقافة المسيطرة في مجتمع ما.
3. اللجوء إلى الافتراضات الضمنية؛ كالمعايير والقيم.
4. إشراك المرسل، والذي يمكن لصلاحيته أن تنتقل إلى ما يقال.
5. الاختيار، والوصف، والتأويل، خاصة للوقائع والمواقف.
6. المطابقة والفصل، والدمج.

إضافة لما سبق يحتوي كتاب أوليرون، الواضح والدقيق، على عناصر لتحليل بُعد الحِجَاج في الصورة.

كتب الحِجَاج

إضافة إلى ما سبق نجد بعض الكتب التعليمية التي تتحدث عن الحِجَاج، مع بعض الأمثلة والتمارين. نجد مثلاً، في سلسلة «التأهيل المستمر في العلوم الإنسانية» كتاب ليونل بيلنجر «الحِجَاج، الأصول والمناهج»، (1992)[110]، حيث يستعيد الكاتب، من منطلق تعليمي بارز، فكرة التأهيل العملي في الحِجَاج. وتكمن ميزة هذا الكتاب في اهتمامه التداولي الكبير، ولكن يؤخذ على مؤلفه تعقيده من دون فائدة تذكر لمادة استطاع غيره تقديمها بوضوح وسهولة. وإضافة إلى هذا الكتاب نشير إلى كتب ألن كانو (البلاغة والتواصل في 12 سؤال

(110) Bellenger, Lionel: L'Argumentation, principes et méthodes, éditions ESF, Paris, 1992.

و19 تمرين، 1992)[111]، وكتاب برنار ماير (التمكن من الحِجَاج، 1996)[112]، والكتب القادمة من كيبيك، مثل كتاب بيير بلاكبورن (منطق الحِجَاج، 1989، 1994)[113]، وكتاب نيكول توسان مع جاستون دوكاس وجورج أ. ليقو (تعلم الحِجَاج، مدخل إلى الحِجَاج العقلاني الكتابي : نظرية وتمارين، 1996)[114].

إن قراءة هذه الكتب المختلفة، التي صدرت في السنوات العشر الأخيرة[115]، لا تغني عن الفائدة الكبيرة للكتب الأربعة التي سجلت تطور البلاغة القديمة، وهي: «البلاغة» لأرسطو[116]، و«في الخطابة» لشيشرون[117]، و«البلاغة في هيرنيوس»[118] (لكاتب مجهول)، و«المؤسسة البلاغية» لكانتيليان[119]. وإذا حكمنا على هذه الكتب من خلال تأثيرها الذي مارسته في التجديد المعاصر للحِجَاج؛ فإننا نجد أن عالميتها قد عبرت القرون من دون أن تضعف.

---

(111)Alain Canu: Rhétorique et communication en 12 questions et 19 exercices, 1992.
(112)Bernard Meyer: Maîtriser l'argumentation, 1996.
(113)Pierre Blackburn: Logique de l'argumentation, 1989-1994.
(114)Nicole Toussaint, Gaston Ducasse & Georges A. Legault: Apprendre à argumenter, initiation à l'argumentation rationnelle écrite: théorie et exercices, 1996.
(115) يتحدث الكاتب عن عقد التسعينات كما هو واضح (المترجم).
(116)(Aristote, Rhétorique).
(117)(Cicéron, De oratore).
(118)(Rhétorique à Herennius).
(119)(Quintilien, l'institution oratoire).

الخاتمة

في ختام هذا الكتاب، الذي سطره كاتبان، والذي يعكس، كما رأينا، تأثيرين مختلفين في حقل الحِجَاج، يمكن القول بأن هناك ملاحظة مشتركة قد اتضحت. أياً كان الاختيار النظري لتناول هذه المسألة؛ فإن الكاتبين يتفقان على أنها اليوم متروكة من دون عناية، خاصة في حقل التعليم. وإن المجتمعات الغربية الحديثة، التي تقدم نفسها كديموقراطية، عليها لزاماً واجب كبير تجاه مواطنيها المطالبين ليس فقط بفهم غالبية المشاكل التي تواجههم، خاصة في إطار التصويت السياسي، وإنما أيضاً بالمشاركة في المجابهات النقاشية التي تصاحب عملية التصويت، والتي تستخدم فيها تقنيات الحِجَاج بصورة كبيرة.

وفي هذا الإطار، يكون الحال اليوم ليس مختلفاً في حقيقته عن حال اليونانيين القدماء الذين اخترعوا في ذات الوقت الديمقراطية وبلاغة الحِجَاج. إلا أنه في حال اليونانيين، كانت الديمقراطية والحِجَاج يسيران جنباً إلى جنب. وعليه فإن الغياب العام، باستثناء بعض المحاولات المقدرة لتعليم متماسك ومنسق للحِجَاج، يرتكز إلى ثقافة عامة واسعة، ومهموم بالاستخدام العملي، ذلك الغياب يعني إلقاء المواطنين الشباب في الماء من دون إعداد مسبق، ثم تأنيبهم بعد ذلك على عدم معرفتهم السباحة. فالتعليم النظامي للحِجَاج قد يكون أكثر من مجرد إضافة مادة إلى البرامج الدراسية، التي هي مثقلة أصلا، وذلك لأنه قد يتيح التخلص من عدم المساواة الواضحة في هذا المجال، وكذلك زيادة جرعة العقلانية في عالم ربما يفتقد للعقلانية.

المراجع

- ACHARD Guy, La communication à Rome, Payot, Paris, 1994.
- ANONYME, Rhétorique à Herenius, texte établi et traduit par Guy Achard, Les Belles Lettres, Paris, 1989.
- ARISTOTE, Réfutations sophistiques, 183b16, traduction J. Tricot, Vrin, Paris, 1987.
- ARISTOTE, Rhétorique, t. 1, 2 et 3, texte établi et traduit par Mederic Dufour, Les Belles Lettres, Paris, 1967.
- BARKER Stephen, The Elements of Logic, McGraw-Hill, New York, 1985.
- BARRY Vincent et SOCCIO Douglas, Practical Logic, Holt, Rinehart & Winston, New York, 1988.
- BARTH E. M. et MARTENS J. L., Argumentation, Approaches to Theory Formation, John Benjamin, Amsterdam, 1982.
- BARTHES Roland, " L'ancienne rhétorique", communications, « Recherches rhétorique», n° 16, Seuil, Paris, 1970.
- BAUM Robert, Logic, Holt, Rinehart & Winston, New York, 1975.
- BELLENGER Lionel, La Persuasion, PUF, « Que sais-je?», n° 238, Paris, 1985.
- BELLENGER Lionel, L'argumentation, principes et méthodes, ESF, Paris, 1992.
- BENNETT John B., Rational Thinking: a Study in Basic Logic, Nelson-Hall, Chicago, 1980.
- BENOIT Ch., Essai historique sur les premiers manuels d'invention oratoire jusqu'à Aristote, 1846, Vrin reprise, Paris, 1983.
- BLACKBURN Pierre, Logique de l'argumentation, Editions du Renouveau pédagogique, Saint-Laurent (Québec), 1994 (1989).
- BRETON Philippe, L'Argumentation dans la communication, La Découverte, « Repères», Paris, 1996.
- BRETON Philippe, L'Utopie de la communication, La Découverte/Poche, Paris, 1997.
- BRETON Philippe, La parole manipulée, La Découverte/Poche, Paris, 2000 (prix 1998 de philosophie morale et politique de l'Académie française des sciences morales et politiques).
- CANU Alain, Rhétorique et communication en 12 questions et 19 exercices, Editions d'Organisation, Paris, 1992.

- CASSEL Jeris F. et CONGLETON Robert J., Critical Thinking: an Annoted Bibliography, Scarecrow Press, Metuhen, 1993.
- CASSIN Barbara, " Consensus et création des valeurs. Qu'est-ce qu'un éloge?", in Les Grecs, Les Romains et Nous, l'Antiquité est-elle moderne? Textes réunis par Roger-Pol Droit, Le Monde éditions, Paris, 1991.
- CASSIN Barbara, article « Sophistique», in Encyclopaedia Universalis.
- CEDERBLOM J. B. et PAULSEN David W., Criticale Thinking: Understanding and Criticizing Arguments and Theories, Wadsworth, Belmont, 1982.
- CHARBONNEL Nanine, La Tâche aveugle. Les aventures de la métaphore, Presses universitaires de Strasbourg, Strasbourg, 1991.
- CHURCHIL Robert Paul, Becoming Logical, St. Martin's Press, New York, 1986.
- CICÉRON, De l'orateur, livres 1 et 2, texte établi et traduit par Edmond Courbaud, Les Belles Lettres, Paris, 1922.
- COMPAGNON Antoine, La Troisième République des lettres, Seuil, Paris, 1983.
- COPI Irving M., Introduction to Logic, Macmillan, New York, 1968.
- CORNAY David et MUNSON Ronald, The Elements of Reasoning, Wadsworth, Belmont, 1990.
- CRAGAN J. F. et CURBITH C. W., " A Revisionist Perspective on Political Ad Hominem Argument: a Case Study" Central States Speech Journal, vol. 35, n°1, 1984
- DAHAN Gillbert et ROSIER-CATACH Irène, La Rhétorique d'Aristote, tradition et commentaires de l'Antiquité au XVIIe siècle, Vrin, Paris, 1998.
- DAUER Francis Watanabe, Critical Thinking. An introduction to Reasoning, Oxford University Press, Oxford/New Tork, 1989.
- DECLERCQ Gilles, L'Art d'argumenter. Structures rhétoriques et littéraires, Editions universitaires, 1992.
- DESBORDES Françoise, La Rhétorique antique, Hachette supérieur, Paris, 1996.
- DOWNES Stephen, Stephen's Guide to Fallacies, http:/www.assiniboinec.mb.ca/user/downes/fallacy/attack.htm, 1996.
- DUMARSAIS, Traité des tropes, Le Nouveau Commerce, Paris, 1977.
- EEMEREN Frans VAN et GROOTENDORST Rob, Speech Acts in Argumentative Discussions. A Theoretical Model for the Analysis of Discussions Directed towards Solving Conflicts of Opinion, Foris, Dordrecht/Cinnaminson, 1983.
- EEMEREN Frans VAN et GROOTENDORST Rob, Argumentation, Communication, and Fallacies. A Pragma-Dialectical Perspective, Lawrence Erlbaum, Hillsdale, 1992 (trad. Française La Nouvelle Dialectique, Kimé, Paris, 1996).

- EEMEREN Frans VAN, GROOTENDORST Rob et KRUIGER Tjark, Handbook of Argumentation Theory. A Critical Survey of Classical Backgrounds and Modern Studies, Foris, Dordrecht/Cinnaminson, 1987.
- ENGEL Morris, Analyzing informal Fallacies, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1980.
- FELDMAN Fred, Doing the Best We Can. An Essay in informal Deontic Logic, Reidel, Dordrecht, 1986.
- FLACELIÈRE Robert, La Vie quotidienne en Grèce, Hachette, Paris, 1959.
- FOGELIN R. J, Understanding Arguments. An Introduction to Informal Logic, Harcourt, New York, 1978.
- FONTANIER Pierre, Les Figures du discours, Flammarion, « Champs», Paris, 1977.
- FUMAROLI Marc, L'Âge de l'éloquence, Albin Michel, Paris, 1994.
- GAUTHIER Gilles, « L'argumentation périphérique dans la communication politique: le cas de l'argument ad hominem, Hermes, vol. 16, 1995.
- GAUTHIER Gilles, « Ethique, argumentation et communication politique. L'éthique de la publicité politique: le cas de la publicité négative», Éthica, vol. 10, n° 2, 1998.
- GAUTHIER Gilles, « L'argument ad hominem politique est-il moral? Le cas des débats télévises», Communication, vol. 18, n°2, 1998.
- GOVIER Trudy, Problems in Argument Analysis and Evaluation, Foris, Dordrecht/Providence, 1987.
- GOVIER Trudy, A Practical Study of Argument, Wadsworth, Belmont, 1988 (1985).
- GRENNAN Wayne, Informal Logic. Issues and Techniques, McGill Queen's University Press, Montreal/Kingston, 1997.
- GRIMAL Pierre, La Civilisation romaine, Arthaud, Paris, 1986.
- GRIZE Jean-Blaise, De la logique à l'argumentation, Librairie Droz, Genève, 1982.
- GRIZE Jean-Blaise, Logique et langage, Ophrys, Gap, 1990.
- GRIZE Jean-Blaise, Logique naturelle et communications, PUF, Paris, 1996.
- GRIZE Jean-Blaise, APOTHÉLOZ Denis, BOREL Marie-Jeanne, MIÉVILLE Denis et PÉQUEGNAT Catherine, Sémiologie du raisonnement, P. Lang, Berne, 1984.
- GRIZE Jean-Blaise, BOREL Marie-Jeanne et MIÉVILLE Denis, Essai de logique naturelle, P. Lang. Berne, 1993.

- HALPERN Diane F., Thought and Knowledge: an introduction to Critical Thinking, Erlbaum, Hillsdale, 1984.
- HAMBLIN Charles L., Fallacies, Vale Press, Newport News, Virginie, 1970.
- HAVELSON William H., A Concise Logic, Random House, New York, 1984.
- HITCHCOCK David, Critical Thinking. A Guide to Evaluating information, Methuen, Toronto, 1982.
- HURLEY Parley, A Concise Introduction to Logic, Wadsworth, Belmont, 1982.
- JENSEN Vernon J., Argumentation. Reasoning in Communication, Wadsworth, Belmont, 1981.
- JOHNSON Ralph H. et BLAIR Anthony J., " The Recent Development of Informal Logic", Informal Logic. The First International symposium, Edgpress, Inverness, 1978.
- JOHNSON Ralph H . et BLAIR Anthony J., Logical Self Defense, MacGraw-Hill, Toronto, 1983.
- KAHANE Howard, Logic and Contemporary Rhetoric: the Use of Reason in Everyday Life, Wadsworth, Belmont, 1988 (1973).
- KING Patricia M. et KETCHENER Karen S., Developing Reflective Judgment: Understanding and Promoting Intellectual Growth and Critical Thinking in Adolescents and Adults, Jossey-Bass, San Francisco, 1994.
- LAMY Bernard, La Rhétorique ou l'Art de parler, PUF, Paris, 1998.
- LEMPEREUR Alain (éd), L'Homme et la Rhétorique, Méridiens Klincksieck, Paris, 1990.
- LITTLE Frederick J., GROARKE Leo A. et TINDALE Christopher W., Good Reasoning Matters. A Constructive Approach to Critical Thinking, McClelland, Toronto, 1989.
- LITTLE Linda W. et GREENBERG Ingrid A., Problem Solving. Critical Thinking and Communication Skills, Longman, White Plains, 1991.
- MCPECK John E., Teaching Critical Thinking: Dialogue and Dialectic, Routledge, New York, 1990.
- MEYER Bernard, Maîtriser l'argumentation, Armand Colin, Paris, 1996.
- MEYER Michel (éd), De la métaphysique à la rhétorique, Editions de l'Université de Bruxelles, 1986.
- MEYER Michel, Questions de rhétorique, Le livre de poche, « Essais», Paris, 1993.
- MINKUS Peter A., Informal Logic, Edgepress, Inverness, 1980.

- MORSE Warner, Study Guide for Logical Philosophy, Wadsworth, Belmont, 1973.
- MUNSON Ronald, The Way of Words. An informal Logic. Houghton, Atlanta, 1976.
- NOLT John E., Informal Logic. Possible Worlds and imagination, McGraw-Hill, New York, 1984.
- NORRIS Stephen et ENNIS Robert H., Evaluating Critical Thinking, Midwest Pub., Pacific Grove, 1989.
- OLÉRON Pierre, L'Argumentation, PUF, « Que sais-je?», n°2087, Paris, 1993.
- PAUL Richard, Critical Thinking: What Every Person Needs to Survive in a Rapidly Changing World, Center of Critical Thinking and Moral Critique, Rohnert Park, 1990.
- PERELMAN Chaïm, " Logique formelle, logique informelle", in Michel MEYER (éd.), De la métaphysique à la rhétorique, Editions de l'Université de Bruxelles, 1986.
- PERELMAN Chaïm, L'Empire rhétorique, Vrin, Paris, 1988.
- PERELMAN Chaïm, OLBRECHTS TYTECA Lucie, Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, 1re éd. Presses universitaires de France, Paris, 1958; ensuite: Editions de l'Université de Bruxelles, 1970.
- PLANTIN, Christian, Essais sur l'argumentation. Introduction à l'étude linguistique de la parole argumentative, Kimé, Paris, 1990.
- PLANTIN, Christian, Lieux communs, topoï, stéréotypes, cliches, Kimé, Paris, 1993.
- PLANTIN, Christian, L'argumentation, Seuil, Paris, 1996.
- PLATON, Phèdre, Garnier-Flammarion, Paris, 1997.
- PURTILL Richard L., Logical Thinking, Harper & Row, New York, 1972.
- QUINTILIEN, Institution oratoire, Les Belles Lettres, Paris, 1980.
- REBOUL Olivier, Introduction à la rhétorique, PUF, coll. « Premier cycle», Paris, 1991.
- RICŒUR Paul, La Métaphore vive, Seuil, Paris, 1975.
- RIEKE Richard D. et SILLARS Malcolm O., Argumentation and the Decision Making Process, Scott, Foresman, Glenview, Illinois, 1984 (1975).
- ROBIN Léon, La pensée grecque, La Renaissance du livre, Paris, 1923.
- ROBRIEUX Jean-Jacques, Eléments de rhétorique et d'argumentation, Dunod, Paris, 1993.

- SCRIVEN Michael, « Fallacies of Statistical Substitution», Argumentation, vol. 1, n° 1, 1987.
- SIEGL Harvey, Educating Reason: Rationality, Critical Thinking, and Education, Routledge & Methuen, New York, 1988.
- SPROULE Michael J., Argument. Language and Its Influence, McGRAW-Hill, New York, 1980.
- STICE James E., Developing Critical Thinking and Problem-solving Abilities, Jossey-Bass, San Francisco, 1987.
- TACITE, Dialogue des orateurs, Les Belles Lettres, Paris, 1985.
- TERRAY Emmanuel, « Egalité des anciens, égalité des modernes» in Les Grecs, les Romains et Nous, L'Antiquité est-elle moderne?, texte réunis par Roger-Pol Droit, Le Monde éditions, Paris, 1991.
- TOULMIN Stephen E., An Examination of the Place of Reason in Ethics, Cambridge University Press, Cambridge, 1950.
- TOULMIN Stephen E., The Uses of Arguments, Cambridge University Press, Cambridge, 1958 (trad. Française Les Usages de l'argumentation, PUF, Paris, 1993).
- TOULMIN Stephen E., RIEKE Richard et JANIK Allan, An Introduction to Reasoning, Macmillan, New York/Collier Macmillan, Londres, 1984 (1978).
- TOUSSAINT Nicole, DUCASSE Gaston et LEGAULT Georges A., Apprendre à argumenter, initiation à l'argumentation rationnelle écrite: théorie et exercices, Le Griffon d'argile, Sainte-Foy (Québec), 1996.
- VERNANT Jean-Pierre, Les Origines de la pensée grecque, PUF, Paris, 1962.
- VIGNAUX Georges, L'argumentation. Essai d'une logique discursive, Librairie Droze, Genève, 1976.
- VIGNAUX Georges, Le Discours acteur du monde. Enonciation, argumentation et cognition, Ophrys, Gap, 1988.
- VOILQUIN Jean, Les Penseurs grecs avant Socrate, Garnier-Flammarion, Paris, 1964.
- WALLER Bruce N., Critical Thinking: Consider the Verdict, Prentic-Hall, Englewood Cliffs, 1988.

- WALTON Douglas N., Logical Dialogue-Games and Fallacies, University Press of America, Lanham, 1984.
- WALTON Douglas N., Informal Fallacies: Towards a Theory of Argument Criticisms, John Benjamin, Amsterdam, 1987.
- WALTON Douglas N., Informal Logic: a Handbook for Critical Argumentation, Cambridge University Press, New York, 1989.
- WALTON Douglas N., Question Reply Argumentation, Green wood Press, New York, 1989.
- WALTON Douglas N., The Place of Emotion in Argument, Pennsylvania State University Press, University Park, 1992.
- WALTON Douglas N., Argument Structure. A Pragmatic Theory, University of Toronto Press, Toronto, 1996.
- WARNICK Barbara et INCH Edward S., Critical Thinking and Communication. The Use Of Reason in Argument, Macmillan, New York, 1994 (1989).
- WILLARD Charles A., Argumentation and the Social Grounds of Knowledge, University of Alabama Press, Tuscaloosa et Londres, 1989.
- WINDISCHE Uli, Pensée sociale, langage en usage et logiques autres, l'Âge d'homme, Lausanne, 1982.
- WINDISCHE Uli, Le Raisonnement et le Parler quotidien, l'Âge d'homme, Lausanne, 1985.
- WINDISCHE Uli, Le Prêt-à-penser. Les formes de la communication et de l'argumentation quotidiennes, l'Âge d'homme, Lausanne, 1990.
- WINDISCHE Uli, « L'argumentation politique: un phénomène social total. Pour une sociologie radicalement quotidienne», L'Année sociologique, juin 1995.
- WOODS John et WALTON Douglas, Arguments: The Logic of the Fallacies, McGraw-Hill Ryerson, Toronto, 1982.
- WOODS John et WALTON Douglas, Fallacies, Foris, Dordrecht, 1989.
- WOODS John et WALTON Douglas, Critique de l'argumentation. Logique des sophismes ordinaires, Kimé, Paris, 1992.
- YATES Frances, L'Art de la mémoire, Gallimard, Paris, 1975.